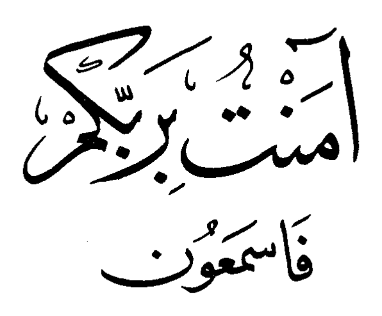
إِميلي برامْلِت



قِصَّة إسلام
الأخت أم مُحمَّد

قدم لها
الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م
الطبعة الثانية ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م


دار الفكر : دمشق ـ شارع سعد الله الجابري ـ ص . ب ٩٦٢

آمنت بربكم

فاسمعون



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

هذه قصة بسيطة . . .

بسيطة في صياغتها ، وأسلوبها ، وعباراتها ! . . لم تقم على شيء من روعة البيان ، ولا براعة الأسلوب ، ولم ينضبط نسيجها بمنوال ما يسمونه الفن القصصي ، ولا دخل في شيء من لحمتها أو سداها خيط خيال ، أو طيف تصوير .

ومع ذلك فقد نالني من التأثر الشديد بهذه القصة البسيطة بهذا الشكل مالم أجده لدى قراءة كثير من روائع القصص لمشاهير الأدباء والكاتبين ! . . ولقد انجرفت منها في تيار من العواطف والمشاعر التي تتحكم بمجامع القلب ، ماكانت لتستثيرها بين جوانحي أقلام أبدع القصاصين ، ولا ريشة أروع الفنانين والمصورين ! . .

فمن أي سبيل سرى إلى نفسي كل هذا التأثر ، من قصة ذاتية ، ما أيسر أن يحبك خيراً منها في الصنعة والأسلوب أي طالب ثانوي في الفرع الأدبي ؟ . .

لقد سرى كل ذلك إلى نفسي من خلال سرّ واحد انطوت عليه قصة هذه الكاتبة ، هو : الصدق ! . . الصدق في التعبير ، والصدق في العاطفة ، والصدق في الاعتقاد .

إنك تقرؤها ، فلا تشعر إلا أنك تلمس نبضات قلب . . وتندمج بين طيات شعور . . . وتخشع لجلال يقين . . .

ولعمري إن جميع فنون الصنعة الكلامية ، مهما سمت وتضافرت ، لن تغني عن حرارة الصدق إذا مافتقر إليها الكلام ، بل لا تعود تلك الفنون إلاّ أثقالاً يمجها الذوق ويضيق بها الشعور . وما أصدق ماقاله الحكماء قديماً : ليست النائحة كالثكلى ! . .

لا جرم إذاً أن ذروة الفنّ الكلامي وغايته ، إنما يتمثلان في الصدق . لا فرق بين أن يتهيأ ذلك للإنسان قفزاً . كما هو الحال في كاتبة هذه القصة ، أو أن يرقى إلى ابرازه والكشف عنه في سلم من أعمال الصناعة الأدبية وفنونها المختلفة

إنما السماجة ، كل السماجة ، في أن تدور صناعة

الكلام ، حول نفسها ، دون أن تحتوي على أي مضمون إنساني ، يصدق المتكلم في الشعور ، والتعبير عنه . وإنّ للنفاق ألواناً ، ولكن أثقل أنواعه على القلب ذاك الذي يحاول أن يتبرقع بفنون الإثارة والبيان ومظاهر الصنعة الكلامية والكتابية ، ليجعل صاحبه من التمثيل حقيقة لا وجود لها في شيء من قاع شعوره ولا أعماق وجدانه .

كاتبة هذه القصة ، امرأة أمريكية ، تذوقت منذ صباها طعم حرية العقل ، فتعشقتها ، ثم اندفعت من هذا المنطلق في طريق شاق وطويل . . كان أوله نقد كل عقيدة دينية تنهض على ضرورات الخضوع للبيئة ، والانسجام مع التقاليد ، وكان آخرُهُ اعتناق الإسلام من مستوى الفهم له أولاً ، واليقين به ثانياً ، والالتزام الكامل به ثالثاً .

تلك هي خلاصة القصة .

أما جوانب الأهمية فيها ، فكثيرة . ولكني ألفت نظر القارىء منها إلى ما يلي :

أولاً - إن في قصة هذه المرأة مع الإسلام ، وكفاحها الذي تحملته في سبيل البلوغ الحقيقي إليه ، ما يقطع دابر تلك الحجة الواهية التي تدور على ألسنة كثير من الشاردين والجانحين . عندما يقول أحدهم ، وهو قابع في أقصى أودية الكسل والخمول : ماهو ذنب الذين نشؤوا في بيوت

أو مجتمعات بعيدة عن الإسلام ، بحيث لم يتهيأ لهم أن يفهموه على حقيقته ، ولا أن يتلقوا التربية الملائمة لنهجه ؟ . .

لئن كان الواحد من هؤلاء ينشأ هنا في بيت لا يعرف الإسلام ولا يسعى إلى التمسك به ، فإن صاحبة هذه القصة نشأت في دنيا من ظلمات الكفر والفجور والانحلال . ومع ذلك فقد توفر لها من الاستشعار بأهمية الخطب وخطورته ، ومن الاعتزاز بحرية البحث والنظر ، ما أعانها في تمزيق تلك الظلمات كلها ، لتقف من ورائها على الفجر الصادق ، ولتستنشق ، عبير النور الخالص ، ثم لتفرق بكامل يقينها العقلي بين الحق والباطل .

اصطدمت بعقبات عاتية من حواجز البيئة ، ومكائد التبشير ، ونوازع الأهل ، فاستعلت على كل ذلك وتجاوزته ثم تحررت منه ! . .

قامت أمامها حواجز العجمة والجهل بالإسلام ، فبدأت من حيث يبدأ الصغار في مدارسهم الابتدائية . تدرس في « قراءاتهم » وتسير على طريقتهم ، تتحمل أقسى درجات الصبر والأناة ، دون أي شريك معها أو معين لها ، حتى تعلمت اللغة العربية الفصحى ، وتخلصت من سجن عجمتها . ثم أقبلت تتعلم القرآن وتتبين عن طريقه حقائق الإسلام .

فأي عذر بعد هذا لشباب نشؤوا في بلاد مسلمة ، ينطقون بلغة القرآن ، ومن حولهم الكتب الزاخرة التي تعرف بالإسلام ، وبين ظهرانيهم المساجد المعمورة بالمواعظ والدروس ، أي عذر لهم في أن يغمضوا أعينهم عن هذا الدين ويعرضوا عنه ، لمجرد أن بيوتهم ليست بيوتاً إسلامية ، أو أن آباءهم لم يعلموهم الإسلام ؟ . .

ما من إنسان أوتي نعمة العقل والتفكير ، إلا وهو يملك مقومات التحرر من سلطان أي بيئة وتقليد . فهذه نعمة وهبها الله لسائر عباده المكلفين .

وما من عاقل إلا ويعلم أن أمر الإيمان بالله والدينونة له ، ومعرفة ما قد كلفنا به ، مسألة خطيرة تتعلق بمصير كل إنسان .

فكل من أتيح له أن يسمع بنذير هذا الدين وندائه ، فإن خطورة الأمر تقتضيه أن يتتبع النداء ويصغي إلى النذير ، وأن يتبين حقيقة الأمر عن كثب . . . ولئن كلف ذلك أمثال هذه الأخت الفاضلة أن تجتاز دنيا من ظلمات الكفر والضلال وتقتحم عقبة إثر أخرى ، وهي لا تملك خلال ذلك كله إلا حرية عقلها ، فما أيسر أن يكلف ذلك آحاد المسلمين عندنا مجرد الانعتاق عن سلطان بيوتهم ، والتحرر من تقاليد بيئاتهم .

ثانياً ـ لقد قرأت في كل سطر من سطور هذه القصة ، معنى قول الله عز وجل وهو يوضح مستقر الإسلام من كيان كل واحد من بني الإنسان مؤمناً كان أو كافراً مشرقاً كان أو مغرباً : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عليْها . لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ القَيِّم . . ﴾ .

ولقد أصغيت من خلال سطور هذه القصة إلى نداء الحقيقة . ينبعث هداراً قوياً من واقع هذه الأخت المؤمنة ، يسمعه كل متأمل حر : ألا إن هذا الدين ليس صنعة إنسان ، ولا اختراع دولة ، ولا ميراث أمة ! . . إنما هو حقيقة ربانية تنزلت من لدن قيوم السماوات والأرض ، ذاك الذي بيده نواصي هذه الخليقة ، وإليه مردّ الناس أجمع . فلن تنكسف شمسها مهما تصاعدت إليها أتربة الأرض ، ولن يُطفأ نورها مهما اتجهت إليها أفواه نافخة وأوداج منتفخة .

فطرةٌ غرسها في أعمق أعماق النفس الإنسانية خلاقها العظيم ومبدعها الحكيم ! . .

ولئن لم يشعر بها الكائدون والمعاندون . فذلك لأنهم حجبوا عنها بسكر شهواتهم وأهوائهم ، ويوشك أن يشعروا بها عند أيّ هزة تصيبهم أو بلاء يحدق بهم .

وإلّا فمنذا الذي هيج هذه الأخت إلى تفهُّم الإسلام ثم

اعتناقه ، وكل من حولها من الناس مثبط أو مبشر أو مضلل ؟ . . منذا الذي صاح بها في أعماق نفسها أن تبحث عن الحقيقة ، بل منذا الذي أشعرها أن ثمة حقيقة يمكن أن تعثر عليها إن هي جدّت في البحث عنها والسعي إليها ؟ . . على أن الأمر ليس أمر هذه الأخت وحدها ، بل هو شأن المئات بل الآلاف ، في أنحاء أوربا وأمريكا وآسيا ، كلهم جادّون في البحث ، متجهون إلى الإسلام ، مهطعون إلى الداعي . . داعي الفطرة الإسلامية المنبعثة من أعماق نفوسهم الإنسانية .

أتريد أن تسمع معي صوت هذه الفطرة ، صافية من كل شوب ، نابعة حتى من فؤاد لم يتبصر بحقائق الإسلام بعد ؟

إذاً فتعال أقتطع لك من قصة هذه الأخت ، العبارات التالية ، وهي تصف حالها إذ وضعت مولودها الأول في مسقط رأسها بأمريكا ، بعيداً عن زوجها المقيم بدمشق ، وذلك قبل أن تدخل الإسلام وتعلم شيئاً من أحكامه وتفاصيله :

ها أنا ذا أحضنك لأول مرة يا بني ، بعيداً عن والدك ، فقد أدخلوه في الجيش ، فأرسلني لأضع عند أبي

العجوز ، الذي لا يزال يحزن لشأني رغم تأكيدي له أنني بخير . . وسنعود قريباً أنا وأنت إلى دمشق . .

لقد سميتك محمداً ، فإنه اسم أبيك وجدك ، وهو كذلك اسم نبيك إذ خرجتَ إلى الدنيا مسلماً مطمئناً . .

أنت أمانة بين يديّ ، ولا أملك أن أكفل مستقبلك . . ليتني كنت مؤمنة فأتوكل على الله . . ليتني قادرة على أن أجعلك مؤمناً ، أن أحدثك وأنت نائم ، فتسجِّل عندك كلمة تبقى معك إلى أن تكبر ، كلمة تثبتك . ولم أحفظ من دينك إلّا ما كنت أسمع المؤذن يقول ، لأقوله في أذنك . . » .

واحتضنت الأم طفلها ، وأخذت تتلو ألفاظ الأذان في أذنه بسائق من الفطرة التي تعتلج في أعماقها ، دون أن تعلم بأن ذلك سنة موروثة عن رسول الله ﷺ ! ! . .

هل يمكن أن تسمع أذناك صوت الحقيقة الإسلامية الكامنة في أعماق كل نفس ، بأقوى مما ينطق به هذا المشهد الأخاذ في هذه القصة ؟ . .

ألا ، ويل لكل من ائتمنه الله على مولود ، ليرعى فيه نواة الفطرة الإسلامية ، فضيع الأمانة ، وسعى سعيه لخنق هذه الفطرة واجتثاث أصولها . ثم مضى وهو يظن أنه

استبدل بالفطرة نقيضها ، وأسكت صوت الحقيقة عن بلوغ مداه ! . .

ثالثاً ـ لقد تملكني شعور مؤلم ممضّ ، ما أظن إلاّ أنه يتملك كل من سيقرأ هذه القصة بإمعان وتدبر ، أن تنظر فتجد هذه الأخت (وهي نموذج للكثيرين من أمثالها) غامرت ببذل كل جهد ، وضحّت بكل حظ من حظوظ النفس ، في سبيل أن تعتنق الإسلام عن دراية وعلم ، وتطبقه عهداً لاتخونه ولا تقصر فيه . فطابت لها الهجرة عن الوطن ، وتجرعت غصة البعد عن الأهل والأقارب ، ثم استسهلت كل صعب في سبيل أن تتعلم اللغة العربية الفصحى ، ولا تقتنع باللغة الدارجة التي اكتسبتها من الجيران والصديقات . إلى أن تعلمتها ، فوصلت بها إلى شغاف الهدي القرآني والنور النبوي . .

على حين أن ترى في مقابل ذلك حالا عجيبة لكثرة من الناس ، نبتوا فوق أرض إسلامية مقدسة ، تظلهم حياة إسلامية وارفة ، أمامهم موائد شتى للمعارف الإسلامية النيرة ، لاتحجبهم عن تذوقها عجمة ، ولا يفتقرون لتفهمها إلى لغة ، ولا يحتاجون للوصول إليها إلى هجرة عن وطن أو مفارقة لأهل . . وعلى الرغم من توفر ذلك كله لهم تراهم يركلون النعمة بأقدامهم ، ويطمسون

أبصارهم بأيديهم، كي لا ترى شيئاً من بصيص النور الذي أمامهم، وينقذفون هنا وهناك بحثاً عن سبيل يصدهم صداً عن حقائق الإسلام الساطعة، وبراهينه النيرة! يلهثون سعياً وراء تقليد الضائعين، ولا يعتبرون بحال الآلاف منهم، وهم يستنجدون بالإسلام وهديه، ويقتحمون للوصول إليه كل شدةٍ وتهلكة!!..

لقد رأيت في هذا العام لفيفاً من الشباب تجمعوا في بيت الله العتيق، من شتى أنحاء أوربا وأمريكا، انتجاعاً للمعارف الإسلامية، وشوقاً إلى أن يروا بيت الله العتيق، فيجددوا في ظلاله بيعتهم الصادقة لله عز وجل.. وقد نالهم في سبيل الوصول إلى ما وصلوا إليه كل لون من ألوان الشدائد، وقد كانوا بغنى عن ذلك كله، لولا ظمأ إلى التشبع بالحقيقة الإسلامية هاج في أكبادهم!.. فلقد رأيتهم في بيت الله الحرام، وقد لبسوا العمائم، وأطلقوا اللحى، وارتدوا ألبسة الإسلام التي هجرها المسلمون اليوم ضعفاً وتقليداً، يعكفون على دراسة اللغة العربية والعلوم الإسلامية المختلفة. لا يستبدلون بالسعادة التي وصلوا إليها، أضعاف ما استدبروه من زخرف الدنيا ومتاعها!!..

رأيت هذا، ففاضت العين مني: أسى!..

أتكون هذه حال الغرباء عن الإسلام ودياره، ويكون حال أكثر المسلمين عندنا هو الانهماك الأعمى في محاربة الإسلام والكيد لحقائقه الساطعة؟..

إن هذا لعجيب حقاً!!

ولكن الأعجب منه أن يندفع أولئك الغرباء، إلى الإسلام، ويعتنقوه بكل طمأنينة وإخلاص، دون أن يحجبهم عن إشراقه هذا الواقع المخزي الذي يعاني منه كثير من المسلمين!..

الأعجب منه أن يملك أولئك الإخوة الغرباء، القدرة على التمييز بين حقيقة الإسلام وواقع المسلمين، فلا يصدهم عن الإسلام واقع أهله، ولا يحملهم التقززُ من مخجلات أوضاعهم على التعقد النفسي من الإسلام الذي ينتسبون إليه!..

ولكن من يدري؟.. لعل المسلمين اليوم لو كانوا أعزاء بإسلامهم، لتسابق الناس إلى الإسلام أفواجاً من كل حدب وصوب، ولاصطبغ كل من أوربا وأمريكا بالإسلام خلال بضع سنوات!.. بل هي الحقيقة التي لا يرتاب فيها أي عاقل متبصر لوقائع الأمور.

وهذا هو السرّ في أن عقلية كل من الاستعمار الأوربي والأمريكي لا تبالي أن تنشط الحركات الإسلامية في

ربوعها ، إذا ما اطمأنت إلى أن الإسلام مهيض الجناح في ربوعه ، وأن معظم المسلمين معرضون عن إسلامهم ، يحاربونه بأيديهم .

ولكن ، فليعلم الجميع أن ديناً أقام الله عماده بيده ، وفطر عليه أفئدة عباده ، لن يوقف من مدّه أو يخْفِض من سلطانه كيد مستعمر أجنبي ، ولا حقدُ مسلم غبيّ ، ولسوف يأتي اليوم الذي يتحقق فيه مصداق قول رب العالمين :

سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفاقِ ، وفي أَنْفُسِهِمْ .
حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ .

وبعد ، فهذا بعض من جوانب الأهمية في هذه القصة ، أما الجوانب الأخرى فيمكنك أن تقف عليها عندما تمضي في قراءتها بتدبر وإمعان .

إنها قصة فتاة أمريكية ، غدت بعد ذلك أماً لمن أسمته : محمداً .

وهي لم تكتبها إلا عبرةً ودرساً لأولادها ، وعندما جاء من يستأذنها في النشر ، لتكون العبرة بها أتم وأشمل ، أبت إلا أن تسجل على القصة إلى جانب اسمها الأصلي كنيتها التي اعتزت بها وجعلت منها بديلاً عن اسمها القديم : أم محمد .

وكأني بها لا تريد أن ينفصل اسم محمد ﷺ عن كيانها ، ولا تريد أن تنسى الساعة التي أسمت فيها وليدها الأول محمداً ، وأهدت إليه ، في جوف الظلام الذي كان يحيط بها آنذاك ، قبساً من ضياء الفطرة الإسلامية ، اقتطعته من أعماق مهجتها المتوهجة بنور الإسلام ، حتى قبل أن تدخل رحابه ، وتقطع على نفسها وحياتها البيعة الصادقة له .

وشاء الله أن يكون ذلك القبس ، سلسلة الكلمات النورانية التي تتعالى فوق المآذن وتتكرر على أسماع المسلمين خمس مرات في كل يوم وليلة . . .

فيا أختي المهاجرة في سبيل الله : أقول لك بلغة دموعي ، قبل بيان قلبي ولساني : تقبل الله منك جهادك وهجرتك في سبيله ، وجعل من الكلمات القدسية التي انسكبت من فمك في أذن مولودك الصغير ، شعلة وضاءة تنتشر من خلال سطور هذه القصة في كل بيت من بيوت المسلمين ، وفي كل قلب لا تزال فيه بقايا من جذوة الإيمان ونبضات اليقين .

أذاقنا الله جميعاً لذة معرفته ، وسعادة القرب منه ،

وأعاننا على التخلص من عفن الشهوات والأهواء التي تحجبنا عنه . حتى نخلص إلى دار القرار بسلام والحمد لله رب العالمين .

دمشق ٢٨ صفر ١٣٩٩
٢٧ كانون الثاني ١٩٧٩ .

محمد سعيد رمضان البوطي



بسم الله الرحمن الرحيم

سَنُرِيهِمْ آياتِنا في الآفَاقِ ، وفي أَنْفُسِهِمْ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ

« فصلت ٥٣ »

لقد وقفت مراراً عند هذه الآية قبل إسلامي . . . بل إني علقت أملي كله بهذا الوعد . . بأن يوماً سيأتي ، أرى فيه آيات الله ، كما يراها المؤمنون ، فتطهّر قلبي من الشك ، ولو بعد حين . . فلم أكن أراها كذلك ، وكان ذلك أملًا بعيداً ، رغم أن الآيات الموجودة في الآفاق ، موجودة تحت بصر كل إنسان في أي زمان ، وتكفي وحدها لأن تثير فينا العجب ، حتى ولو كنا كفاراً . . . تثير فينا العجب ، وتهدي من شاء الله هدايته إليه . . . وأما الآيات التي في الأنفس ، فهي غامضة أحياناً ، تختلف كما تختلف الشخصيات والظروف ، لا يراها إلا المؤمن ، وبها يزداد إيمانه . ولم أكن أقدرها حق قدرها حتى تكرر السؤال من حولي : كيف آمنت ؟ وما الذي جعلك

تسلمين ؟ وعجزت فعلاً عن الجواب ، إلا أن ذلك كان من فضل الله ونعمته عليَّ ورحمته الواسعة لي ، لكنني أدركت أن السائلين كانوا يهتمون بهذا البيان تثبيتاً لإيمانهم أيضاً . . . لذلك أخذت أتأمل في الماضي ، حتى قبل أن أعرف شيئاً عن الإسلام ، إلى أن تأكدت أن الله كان يناديني وأنا غافلة ، كما يفعل حتماً بكل إنسان ، ومهما كان بعيداً عن الهدى ، فإن الهدى موجود لمن أراده .

والإيمان لا يأتي دفعة واحدة ، وإنما يأتي بعد مجموعة كبيرة من الحوادث والانطباعات . ثم رحمة فيما أنزل للعباد ، تأكيداً أو إصلاحاً لكل ما استنتجوا من الحياة .

فعلى المؤمن الباحث ألا يهمل آيات الأنفس ، ولينفض الغبار عنها ، لتحقيق الوعد :

حَتّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ . أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهيدٌ .

وإليكم هذه الخلاصة . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

هَلْ أَتى عَلى الإنْسانِ حِينٌ مِنَ الدَهْر
لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكوراً .
إنّا خَلَقْنا الإنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَليهِ
فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً .
إنَّا هَدَيْنَاهُ السَبِيلَ إمّا شاكِراً وَإمّا كَفوراً .
« الدهر : ١ ـ ٣ »

وإذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ : أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟
قالوا بَلى شَهِدْنا .
أَنْ تَقُولوا يَوْمَ القِيامَةِ إنّا كُنّا عَنْ هذا
غافِلِين ،
أَوْ تَقولوا إنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَكُنّا
ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِما فَعَلَ
الْمُبْطِلُونَ ؟
وَكَذلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .
« الأعراف : ١٧٣ ـ ١٧٤

خرجَتْ طفلة إلى آية النهار المبصرة . فجلسَتْ تحت الشجرة ، وكأنها تجلس عندها لأول مرة . . لم تتذكر كيف سارت هكذا على درب الحياة ، فقد وجدت نفسها سائرة عليه ، تشعر أحياناً بثقل سؤال لم يلفظ ، بل لم يتكون بعد ، فتدفع به إلى زمان ومكان غير هذا الزمان وغير هذا المكان لتتنفس قليلاً . . .

كانت تنعم بالطبيعة وتتأمل الكون من السماء إلى أصغر الحشرات ، ولم يكن لديها ما يدفعها إلى تنظيم هذه الانطباعات ولا التعبير عنها ، لكنها كانت تشعر بمطلق السعادة هناك في حديقة المنزل ، وأصبحت الخلوة غاية في نفسها ، لا تشبع منها مهما طال الوقت .

أسندت ظهرها إلى الشجرة ، حافية القدمين ، تحرك الأصابع في التراب الرطب ، ورفعت وجهها إلى الشمس الدافئة مغمضة العينين ، وأحست بالنسيم يرفع شعرها بلطف وحنان ، وتمنت أن تبقى هكذا إلى الأبد . . . .

فإذا بها تسمع صيحة ينقبض لها قلبها ، يتبعها صراخ ينكره عقلها الصغير ، فلا تجد له تفسيراً عنده . . وفجأة كما بدأت الأصوات المرعبة انتهت . . فتحرك جسدها

الجامد مسرعاً إلى أمن البيت . وكادت تصطدم بشيء . . .

إنها هرة صغيرة ترتجف بعنف . والدم يسيل منها . . فأدركت الطفلة أنها تتألم ، فنادت أمها ، ووقفت مشدوهة في حين حملتها أمها إلى المطبخ . وسالت دموعها . . . كيف تطيق هذه المخلوقة الناعمة الصغيرة كل هذه الآلام الشديدة في جسدها الممزق ؟ ! ! ودت لو تخفف عنها ، وأخذت تتمنى . . تتمنى بكل قلبها وعقلها وروحها . . . تخفيف آلامها ، وانقطاع عذابها .

وبعد أيام أخذ جرح الهرة يلتئم ، فبشرتها والدتها لقد نجت من الموت . فقالت الطفلة : وما هو الموت ؟ !

- إنه عدم الحياة .

- ومن منا لا يحيا ؟

- الذي انتهى عمره .

- تعنين من الحيوان ؟

- والإنسان أيضاً يموت .

- عندما يصاب بألم شديد ؟ !

- ليس ذلك شرطاً . فمن الناس من يتوفى خلال نومه ، وغالباً ما يكون ذلك عند الكبر .

- أنا لا أريد أن أموت .

- أرجو لك عمراً طويلاً جداً . . .

* * *

كان المساء يتقدم، فيجد الطفلة على المقعد الخاص بهَا، تأكل ما وضع لها من الطعام، وتراقب حركات والدتها في المطبخ:

- إنها تعلم كل شيء، فهي تعمل كل شيء، تعمل لنفسها... وتعمل لأجلي... وأنا لا أعرف أن أعمل شيئاً إلا وهي تساعدني. وإن هي لم تضع أمامي الطعام فلن أجده.. ياله من وزر تحمله... لكنها لا تخاف لأنها تعلم... الكبار كلهم يعلمون، وأنا لا أعلم...

إنها تقترب مني وتبتعد، فهي مستقلة بنفسها. وأنا التي لا أقدر على شيء.. أنا مستقلة بنفسي.. إنني أنا.. وهي ليست أنا.. ومن رأيتهم من الناس أمثالها فإنهم ليسوا أنا.. هم هم، وأنا أنا.. ذلك لأنهم ينظرون إلي من خارج جسدي، وأنا أنظر إليهم من داخل جسدي، كما أنظر إلى الشارع من النافذة. فأنا موجودة داخل جسدي، ولا أستطيع الخروج منه...

إذن هذا هو الفرق بيني وبينهم: أنا في الداخل وهم في الخارج، فلا أحد مثلي أبداً.

ولكن.. لماذا ياترى!!؟ لِمَ وُجدت هكذا؟! ومن أوجدني؟! أهي أمي؟ لا أعتقد... فما الذي أوجدني ووضعني ههنا؟! لا أعلم شيئاً ولا أقدر على شيء؟!..

☆ ☆ ☆

ـ إنه عائد اليوم ! إن والدك سيعود من السفر ، كم قد اشتقنا إليه ! ! ألا تفرحين لرؤيته ؟

ـ لا . . . لا أفرح . . .

ـ ماهذا الكلام ؟ !

ـ إذا عاد ذهب إلى المخبر فلا نراه . . .

ـ إنه والدك ، وهو عالم محترم بين الناس ، يعمل لهدف نبيل ، إننا نحبه ، ونفخر به ، وأنت ابنته . . . !

ـ اذن ، سأفرح . . .

☆ ☆ ☆

ـ أمي ؟ . . لدي سؤال .

ـ نعم ؟

ـ إني آسفة فقد تظنين أني لا أصدقك . . .

ـ ماسؤالك ؟

ـ ألا تغضبين إن سألته ؟

ـ لا أغضب .

ـ لقد قال لي رفيقي إن « البابا نويل » ليس حقيقياً ، وإن الوالدين هما اللذان يضعان الهدايا تحت الشجرة ليلة عيد الميلاد ، فقلت له إنه غلطان ، لأن أمي تروي لي قصته كل عام . وهي لا تقول إلا الحق .

ـ أهكذا قلت له ؟

ـ لكنه لم يقتنع . وإنما نهرني وسخر مني . . . أرجوك أن تصححي له رأيه .

ـ لقد كنت أتوقع منك الشك قبل الآن .

ـ لا أشك ياأمي ، ولكن . . . أريد أن يقتنع هو .

ـ ولما يدخل الشك في قلبك ؟

ـ أنا ؟ لا أعلم . . . لا تؤاخذيني يا أماه . . . بلى . . . إنه قد دخل .

ـ فلِمَ لم تسألي ؟

ـ إني . . . ماما ؟ . . هل قوله صحيح بأن البابا نويل . . . لا وجود له ؟

ـ نعم إنه صحيح .

ـ فكيف كنت أفرح بشيء لا وجود له ؟ ! كيف كنت تحدثيني عنه وتدّعين أن الهدايا منه ، ولا وجود له ؟ ! !

ـ إنها أسطورة تسر الصغار والكبار . ألم تكوني مسرورة بخيال زيارة البابا نويل لك ؟ !

ـ كل فرحي لا يعادل هذه الاهانة . . . ياله من خزي لن أنساه ! ! !

ـ لكن الأطفال كلهم يؤمنون ، ثم يكبرون . . . ومن الطبيعي أنهم يعرفون الحقيقة ، ويرضون بها . . . وتبقى لهم الذكريات الجميلة ، فيكررونها مع أولادهم . . .

ـ لقد علمتني أن أصدق وأصدّق ، فصدقتك . . .

ـ يا ابنتي ألا تفهمين ؟ إنها عادة تقليدية يحبها الأطفال . . .

ـ لا أريد أن أسمع ! ! لقد كذبت ! لقد كذبتِ وخدعتني ! كيف أصدقك بعد اليوم ؟ كيف أصدق أحداً ؟ ! وكيف أثق بأحد ؟ . .

لأكن حذرة . . . فلا أقعن في مثل هذا مرة أخرى . . .

☆ ☆ ☆

ـ ماذا يزعجك ياابنتي ؟ لماذا تبكين ؟

ـ إن الضباب يحيط بي ولا أجد بيتي ! إني ضائعة لا أجد الطريق !

ـ لقد رأيت أحلاماً مخيفة لا حقيقة لها ، فلا تبالي .

ـ إني أراها في كل ليلة وأخشى النوم .

ـ اطمئني ، فإنها خيالات لن تؤذيك . . .

☆ ☆ ☆

ـ قومي ! استيقظي ! مابك ؟ هل رأيت الضباب مرة أخرى ؟

ـ كلا . . .

ـ ماذا رأيت حدثيني !

ـ لا . . . لا أستطيع . . .

ـ ماذا أفعل بك ؟ إني أجدك على هذه الحالة كل ليلة ، فلا راحة لك في النوم . . انظري إلى جسمك كيف يرتجف . . . صارحيني يا ابنتي ! ! ما الذي تعانين . . . أخشى أن تكوني مريضة . .

ـ لست مريضة .

ـ لكن الرؤيا لا تفارقك .

ـ لا .

ـ ألا تستطيعين التكلم عنها ؟

ـ لا . . . لا تذكريني بها .

ـ قد أضطر أن أذهب بك إلى الطبيب .

ـ لا أريد ذلك .

ـ إذن ستحدثيني عما يرعبك في كل ليلة ، وسنتغلب عليه إن شاء الله .

ـ انتظري قليلاً . . .

ـ لن أتركك تنامين حتى تروي لي ماذا يلم بك . .

ـ من البداية ؟

ـ نعم .

ـ سأحاول ، لكني أخاف . . .

ـ إنني معك .

ـ لقد وقعت على الأرض وجرحت ركبتي .

ـ نعم ؟

ـ فحملني أبي . . . حملني إلى الضوء الصغير الذي يضيء حين يدور جهاز التدفئة تحت أرض البيت ، وقال لي إن هذا النور الضئيل سيبرىء جرحي . . .

ـ غريب !

ـ وحين رفعني أبي أصابت نقطة من دمي الضوء الصغير فإذا به ينفجر في وجهي ، فينفجر معه جهاز التدفئة ، ثم ينفجر البيت كله . . وأرتمي إلى الأرض . . . أتطلع إلى أبي فلا أجده ! ! ! البيت يحترق ! ! يقترب مني اللهب ويخفق قلبي بعنف في صدري ، وقد ذهب عني صوتي ، وخارت قوتي . . . لا بد أني أحترق . . .

ـ إني معك ، فلا تبكي ياابنتي .

ـ لقد ذهبوا وتركوني أحترق . . .

ـ وهل تصل إليك النار ؟

ـ إني في تلك اللحظة أستيقظ . . .

ـ خير يا بنتي خير . . سنتحدث في الصباح ، وأفهمك أنه خيال ، لا ينبغي لنا أن نخاف منه أبداً .

☆ ☆ ☆

ـ أيها البحر الصديق ، كن لي ملجأ من هذه الحياة الشاقة المحيّرة فإني أحس عندك براحة وطمأنينة كدت أنساها لو لم أتعرف عليك . . أدخلني في مملكتك مع أهل الصخور والأحواض والأعماق ، وعلمني شجاعةً أواجه بها غرباء البشر فلا أخشاهم . ولآتينّك في كل فرصة ، فإن أملي فيك كبير . أيها الصديق ، أيها البحر ! !

☆ ☆ ☆

ـ كم سيحسدني رفيقي حين أخبره بأني ذهبت معك إلى المخبر ياأبي !

ـ أود لو تصبرين قليلاً فلا تزالين صغيرة ، لكن ربما تتشجعين على الجهد في المدرسة . . .

ـ لا أحب المدرسة .

ـ ولكن لا بد منها . فهي أساس الحياة الفضلى ، ومَن لا علم له لا احترام له .

ـ ألا تعلمني أنتَ فأترك المدرسة ؟ إنها سلبت روحي ! إنها عدوي !

ـ إني مختص بعلم الإحاثة . فلا أقدر على تدريس غير هذه المادة . وإني اخترت اختصاصي بعد دراسة شيء من العلوم كلها . فكيف تعلمين ماهو ميلك إن لم تتعرضي إلى

الكل ؟ ! ثم إن طلابي قد خرجوا من المدرسة ثم من الجامعة قبل أن يأتوني . . . تفضلي ، ادخلي . . .

ـ آه ! إنها قاعة تفوح فيها رائحة حجارة وغبار ! ومكاتبها ! كأنها تحتوي آلافاً من الكتب والمصنفات !

ـ نعم ، هو كذلك .

ـ ما هذه الحدائد ؟

ـ إنها بعض المغنطيسات .

ـ لا أستطيع أن أفرقها . كم هي قوية ! أصحيح أن الأرض مغنطيس ؟ !

ـ نعم ، بسبب دورانها . أتدرسين هذا في المدرسة ؟

ـ لا أتذكر . بابا ! ! ما هذا ! ؟

ـ ماذا يظهر لك ؟

ـ رمل أبيض .

ـ ضعي الصحن تحت المجهر . . عدلي الصورة من هنا . . جيد . .

ـ إنها صدف ! ! ملايين من الصدف كالتي أراها على شاطىء البحر !

ـ بل إنها مستحاثات . . بقايا متحجرة من حيوانات دقيقة جداً عاشت من بليون سنة تقريباً .

ـ ما أروعها ! بعضها على شكل نجمة ، وبعضها

مدور ، وبعضها شائك . . . إنها أمم ! ماذا تفعل بها ياأبتاه ؟

ـ إنني وزملائي نعمل على جمعها وتصنيفها لنكتشف بها النفط ، فأصل النفط من أجسام هذه الحيوانات . . . وقد بدأنا نحسب ونحدد بها تاريخ الأرض بما نجده في طبقاتها الصخرية من أنواع هذه المخلوقات .

ـ لقد علمت الآن لماذا لا تبقى في البيت طويلاً . . والحق معك يا أبي ! ما كنت أتصور أن العلم لذيذ هكذا . . دعني أرافقك دائماً إلى هنا ، وأساعدك وأتعلم .

ـ إن لم تزعجيني أثناء عملي ، فسوف آتي بك في بعض أيام العطلة .

ـ أبداً أبداً ياأبي . . .

ـ وشرط ثان أنك تنتبهين إلى دروسك في المدرسة .

ـ لا تجعلني أعدك شيئاً ، قد لا يتحقق ، فإني أستمع إلى الدروس لكن أفكاري تهرب فجأة ، تحملني بعيداً بعيداً ، على الرغم مني ماذا أفعل ؟

ـ حاولي !

ـ سأحاول . . شكراً يا أبي .

ـ انظري ! هذه نقطة من الماء على الشريحة . ضعيها تحت المجهر .

ـ إنها تتحرك . . . فيها أشياء تتحرك . . .

ـ ركزي . . .

ـ إنها مخلوقات شفافة . . . ياللعجب ! أنحن نشرب هؤلاء ؟

ـ كل يوم . لاحظي أن جسمها من خلية واحدة ، تنقسم أمام عينيك فتتكاثر هكذا ، وأن لها مثل قلب ينبض .

ـ لولا المجهر ما رأيتها . . . ترى ، هل هي تراني ؟

ـ كلا . إنها لا تبصر ، وحتى لو كانت تبصر فلن تراك لضخامة حجمك بالنسبة إليها .

ـ عجباً ! إنها تعيش وتقوم بوظائفها ولا تعلم أني أراقبها ، وإن شئت أمسكت بهذا الدبوس وعذبتها أو أمتها ، وإن شئت رحمتها وتركتها . وكيف لا أرحمها وهي ضعيفة حقيرة ، لا تستحق الأذى ، وبعد قليل سيجف ماؤها ، وتموت ؟ إني أحكم عليها بالرحمة ! أحكم عليها بالرحمة !

ـ هيا يابنتي . لقد انتهيت مما علي من العمل ، بينما كنت تلعبين بالمجهر ، وقد تأخرنا عن الغداء ، فهيا !

☆ ☆ ☆

ـ إن كان لا بد من المدرسة ياماما . فلماذا تجبرينني على الذهاب إلى الكنيسة ؟ ألست أستحق الراحة في يوم العطلة ؟

ـ كفى ! لقد حفظت تذمرك هذا غيباً ، ولا رغبة لي في سماعه مرة أخرى . ارتدي ثيابك . إن العبادة تنفع الأخلاق .

ـ إن الخطبة طويلة تضيق الصدر . لا تعجبني إلا الأناشيد .

ـ ذلك لأنك لم تستوعبيها بعد .

ـ أأنت تفهمين كل ما يقول القسيس ؟ ! حتى « الثالوث » « والروح القدس » ! ؟

ـ قد يوجد في الدين أحياناً ماهو أعلى من مستوانا فنجده غامضاً ، ولكن إن لم نفهمه تماماً ، فعلينا أن نؤمن به .

ـ كيف نؤمن بما لم نفهم ؟

ـ الفهم في العقل . وأما الإيمان ، فهو في القلب .

ـ فالإيمان يعني أننا نصدّق .

ـ أحسنت !

ـ ما أصعب الإيمان . . .

ـ هيا بنا قبل أن نتأخر !

ـ إني أتخلى عن الكنيسة ، ولن أرافقك اليوم ، ولا بعد اليوم .

ـ ويحك ! !

ـ الآن ستقولين إن الله سيعذبني إن لم أحضر أليس كذلك ؟ ! لقد وجد الناس في تلك الأساطير ما يخوفون به أولادهم ، لكني لم أعد صغيرة كما تحسبين . . .

ـ من أين لك هذه الوقاحة وقلة الأدب ؟ ! ؟

ـ من أبي .

ـ ماذا ؟

ـ إنه صادق أمين ولا يحضر الكنيسة .

ـ لكنه كان يحضر في مثل سنك .

ـ فعندما كبر وأصبح عالماً علم أن حضوره لا فائدة منه ، فلم يعد يحضر .

ـ هل قال لك ذلك ؟

ـ إنه واضح بدون أن يقول . وأنا سأكون مثل أبي ، أعتمد على العلم ، فلا حاجة لي في الكنيسة . . .

☆ ☆ ☆

ـ هيا يارفيقي ! لنذهب إلى مخبئنا .

ـ ألم ترافقي أمك إلى الكنيسة ؟

ـ لقد رفضت الذهاب معها ، ولم يكن الأمر سهلاً . . . تعال لأطلعك على هذا الكتاب الصغير .

ـ يكفينا كتب المدرسة .

ـ ليس هذا مثلها . لقد سألت أمي كيف يخلق الطفل ، فاشترته ليشرح لي كل شيء . وفيه معلومات ماكنا نتصورها قط ! تعال لنقرأ معاً . . .





بسم الله الرحمن الرحيم

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ، ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ،
ثُمَّ منْ عَلَقَةٍ ،
ثُمَّ يُخْرِجكُمْ طِفْلاً ، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ،
ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً . وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفّى مِنْ
قَبْلُ ،
وَلتَبْلُغُوا أَجَلاً مُسَمّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون .
هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، فَإِذَا قَضَى أَمْراً
فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .
أَلَمْ تَرَ إِلى الّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللهِ
أَنّى يُصْرَفُونَ .

« المؤمن : ٦٧ ـ ٦٩ »



ـ أبي ؟ أأنت في المكتبة ؟ لقد جئت لأرد هذا الكتاب إلى مكانه .

ـ ما هذا الكتاب الضخم ؟

ـ إنه « أصل الأنواع » لدارون .

ـ وهل من الممكن لفتاة مقصرة في دروسها أن تكون قد فهمت شيئاً من هذا الكتاب ؟

ـ بعض الكلمات لم أفهمها ، لكنه يقول إن الحياة بدأت كأصل واحد . ثم تطورت عبر العصور . بسبب بقاء الأصلح حسب البيئات ، حتى صارت كما نراها اليوم من فروع شتى . لقد سمعت عن دارون في المدرسة ، ثم وجدت كتابه في مكتبتك ، فأردت أن أعرف . . .

ـ نظريته ؟

ـ نعم . . . قال الأستاذ إنها فرقت بين رجال العلم ورجال الدين ، إذ تخالف رواية الإنجيل فتجعلها مهجورة . وهذا الذي لم أفهمه . . .

ـ يقول الإنجيل إن الكون وما فيه خُلق في ستة أيام ، وقد أثبت العلم أنه عملية بلايين من السنين .

ـ ربما كانت أياماً غير أيامنا . . .

- ويقول الإنجيل إن الله جبل آدم من تراب ، ثم نفخ فيه من روحه فأصبح إنساناً . ألا تذكرين ؟

- وداروِن يقول مثل هذا . فأصل الحياة من ماء وتراب . ولا يقول كما زعم الناس إن الإنسان من القرد ، وإنما للإنسان والقرد أصل واحد وهما فرعان منه . ثم لا أذكر أن الإنجيل حدد زمن خلق آدم من أول بنائه حتى نُفخ فيه . . ربما كان ذلك عبر العصور . . .

- ربما .

- أبي ؟ هل نظرية داروِن حقيقة ؟ !

- إنها نظرية . معنى ذلك أنها رأي مثقف مبني على نتائج بحوث علمية قام بها هو وغيره . فلا يقول إنها حقيقة على الإطلاق ، لكنها معقولة ، وقد تكون أقرب إلى الحقيقة مما اعتقدنا سابقاً .

- ألا تؤدي البحوث العلمية إلى الحقائق ؟

- أحياناً . . ليس دائماً .

- أفليس هناك سبيل إلى معرفة الحقيقة ؟ !

- ماذا تعنين بالحقيقة ؟

- من أين جاء الكون وإلى أين يذهب . . .

- هذا ما شغلنا في الدراسات ، ولا نعلم اليوم إلا القليل . لكن العلم هو أملنا الوحيد ، عسى أنْ تكون أجيال

المستقبل أعلم منا في هذه المسائل . إذ نقدم لها ، كما قدم لنا أسلافنا ، ما نبني عليه . وهذه هي الإنسانية بعينها ، خدمة الإنسان لأخيه الإنسان . . .

☆ ☆ ☆

- لماذا لا تقرئين الإنجيل ياأماه ؟ أليس هذا من دينك ؟ !

- لقد قرأته أكثر من مرة ، وكان يجب أن أقرأه من جديد . . . لكني ، على الأقل ، أحضر الكنيسة .

- لقد خطر لي أن أجرب حضورها مرة ثانية ، عسى أن أفهم شيئاً لم أكن أفهمه وأنا طفلة . وأود لو أقرأ الإنجيل قبل ذلك ، لكني أجد لغته صعبة ، تتعبني كثيراً . . .

- إن شئت قرأت لك قليلاً كل يوم . . .

- « فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك . . . » .

- ظلم ! إنه ظلم ! لماذا تقبل الرب قربان هابيل ولم يتقبل من أخيه ؟ !

- إن السبب لم يذكر .

- لو كنت أخاه لكرهته كرهاً شديداً لذلك . وتمنيت موته ، وربما قتلته بيدي ، فلا ألومه كثيراً . لماذا لم يقدر

الرب شعوره ، ويتقبل منه ، لكيلا يكره أخاه فيقتله ؟ إن الرب يدفعه إلى الجريمة ثم يلعنه بها !

ـ إننا نقرأ فقط ، ولا نبحث في الغيبيات .

ـ لو كنت أكتبُ عن إله أعبده ، ما صورته ظالماً . . .

ـ إن الله ليس ظالماً لكنا لا نفهم حكمته ولا تصرفاته بالعباد . . .

ـ مسكين أخو هابيل . . .

☆ ☆ ☆

ـ أبي هل تعتبر نفسك مسيحياً ؟ من النصارى ؟

ـ كلنا نؤمن بقدوة المسيح وتعليماته السامية .

ـ وكان هو الله ، أو ابنه كما يقولون ؟

ـ هل هذا من المعقول ؟ ما عاش رجل ممتاز على وجه الأرض إلا وقد بالغ العالم في الروايات عنه ، وجعلوه شيئاً فوق البشر . كان المسيح شخصية تاريخية ، لا ينكر ذلك أحد ، ومعلماً عظيماً . . . لم يستطع الإنسان أن يرتفع إلى مستواه حتى الآن .

ـ فالله ماهو ؟ أتؤمن به ؟

في ضوء عدم التثبت من أي الجانبين ، علي أن أقول : لا أدري ، لكن الأرجح أن لا . . . لا أؤمن بوجود إله للبشر .

ـ من الذي خلق الكون في بداية الزمن ؟ أكان هو الله ؟ !

ـ لا نعلم تماماً كيف كان بدء تكوينه . . لعله حدث عن طريق المصادفة . . وربما كان هنالك مسبب أزلي سماه القدماء الله . . ولا يعني ذلك أنه كشخص يهمه أمرنا ، ولا أمر الكون بعد خلقه . . لا أعتقد ذلك ، فما قيمتنا بالنسبة إلى الكون كله ؟

ـ هذا ما كنت أقوله في نفسي . فلم يكن هناك إذن مَن كان يكلم الأنبياء قديماً وينصرهم . . .

ـ هذا ما كانوا يتصورون في قصصهم . . .

ـ من أين جاءت تلك القصص ، ومن ألفها ؟

ـ أساطير الأولين .

ـ لا حقيقة لها ؟

ـ لا بأس من قراءتها من موقف أدبي ، ومن المحتمل أن الأنبياء كانوا أشخاصاً عاشوا فعلاً ، وكالعادة بالغ الناس في الرواية عنهم . . ونشأت حولهم الأساطير ، ولا علم لنا بحقيقتهم .

ـ إني أقرأ في العهد القديم مع أمي ، وأجد القصص غريبة كقصص الأطفال الخيالية . ليت لنا إلهاً يصحبنا ويهدينا ، كما كان يصحبهم ويهديهم . . .

ـ لو كان الأمر كذلك لكانت الحياة سهلة . ولكن هل ينفع التمني ؟

ـ لا .

ـ لقد عاشت الحضارات الأولى في مرحلة طفولة كما يعيش الإنسان . فلما جاوزنا تلك المرحلة ، علمنا أن الهدى في العقل والضمير ، ولم نعد نقبل إلا ما يثبته لنا العلم . .

ـ إذن ! ! فكيف نعلم الحق ؟ ؟

ـ يا بنتي ، لا وجود لشيء اسمه الحق ، فالأمور كلها نسبية .

ـ بعض رجال الكنيسة يدعون أنهم يعرفونه . . .

ـ ذلك لضيق آفاقهم وجمود عقولهم . لو أنهم بحثوا لعلموا أن الإنسان قد يصل إلى بعض الحقائق ، لكنه لن يصل إلى الحق . . إنه حلم من أحلام المثاليين ، وليس من الواقع . . .

ـ أتصور ياأبي أن لو كان الدين صحيحاً والعلم كاملاً لالتقيا وما اختلفا . . .

ـ لن تنفعك هذه الفلسفة في حياتك . أنصحك أن تضعيها جانباً . . .



ـ لقد تركت همومي وأتيتك . . . أيها البحر ! ! كما كنت أفعل منذ صغري . عندما أبتعد عن الشاطىء طافية على وجه الماء . . عائدة إلى حضن الحياة . . أكاد أنسى الزمن في رحابك ، وأحس أني أعيش لهذه اللحظات . . .

إن الحياة تتعقد ، والمجتمع يناديني فلا بد من دخولي في غماره ذات يوم . . . لكأننا نترك كالعميان . نلتمس الطريق حتى نجد مكاناً . . وربما لا نجد ، فنصطدم ونقع . . . ولنا ما حرم على آبائنا من الحرية والخيار ، وبإمكاننا كل شيء . . . هكذا يقولون . . .

ما أبعدنا عن آبائنا الأولين . . . كم قد علا حاجز الزمان . . . لقد كانوا قريبين إلى الطبيعة . . . هل من الممكن أن يكونوا قد علموا حقائق ضاعت عنا ؟ أو قدروا فعلاً على الاتصال بما وراء الطبيعة ؟ لا سبيل لنا إلى معرفة ما كانوا عليه ، فإننا لم نرث إلا بقايا من كتبهم ، قد ذهب معناها وحكمتها في ترجمات عبر القرون ، واختلف الناس فيها حتى أكل بعضهم بعضاً ، وقد رموا بها أخيراً لأنهم لم يفقهوها ، واستبدلوا بها الضمير ليلائم أمورهم النسبية . . . وهذا التقدم . . . وهذه النعمة . . . هكذا يقولون .

ما أروع هذا الكون الذي لم نكتشف منه إلا القليل . . . الحياة والموت . التركيب والنظام . . . أصناف شتى باختلافات لا تحصى ، ومشابهات عجيبة كتلك التي بين السموات والذرة . . .

ـ بعد قليل سأعود نحو الشاطىء وأغوص لأحيّي الأسماك في حديقتها بين الصخور . وحين أصعد يلتقطني الموج العالي فأشد جسمي وأمتطي ظهره ، فيقذف بي هادراً ويوصلني بلطف إلى الرمل ، ثم ينسحب . . .

لقد أجبتَني عن كل ما سألتُ ، فأنت سعادتي وأمني ، ولا أرجو من حياتي أكثر من ذلك ، أيها البحر . . .

☆ ☆ ☆

ـ كيف انتسبتِ إلى الكنيسة ياأماه ؟ هل اخترت دينك ؟

ـ لقد وجدت آبائي منتسبين إلى هذا المذهب وربيت فيه .

ـ ورضيت هكذا ، وصدقت بلا برهان ؟ ولم تتساءلي . . . ؟

ـ لم نكن نتساءل في تلك الأيام عما علمنا أهلنا . . .

ـ ألا تتساءلين الآن ؟ أأنت مؤمنة حقاً ؟

ـ أرجو ذلك .

ـ فكيف تؤمنين ؟ ! إني عدت إلى الكنيسة كي أصبح مؤمنة لكني عجزت . . . قرأت عن آلهة القدماء فلم أرها تحمل صفات من كان جديراً بالعبادة . . . الصفات التي لا يقوى على حملها الإنسان الناقص . . . قد يحملها منظم الكون لو كنا نتصوره ، لكنه ليس إله اليهود الذي كان يخطىء أحياناً ، ولا إلهكم الذي تحول إلى بشر فتعذب ومات كما يموت البشر . . .

ـ لقد فعل ذلك رحمة بنا ، وكفّر بعذابه عن سيئاتنا ، وذلك هو الحب المطلق .

ـ فالأمر انتهى إذاً . . . ليس علينا شيء ، وليس لنا شيء . . .

أعرف بنتاً في المدرسة تقول إنها لا تقلق ، لأنها تؤمن بالله والمسيح وأنها مقتنعة بدينها ، وددت لو كان لي ذات يوم أولاد ، وأن أربيهم في دين ، أي دين ، ليستقروا في حياتهم . . لكنني لا أعرف كيف أعلمهم ديناً وليس لي دين .

ـ أعترف بأن الإيمان في زمننا هذا صعب ، وقد فقده كثير من الناس ، حتى قال القسيس مرة : من لم يجد الإيمان ، تكفيه رغبته في أن يؤمن .

- أهذا وضعك ياأماه ؟ ؟ لا أرى أن الرغبة تغني عن الفعل ، فالجائع ليس كمن يأكل . . .

- إني أحياناً أنظر إلى السماء والبحار والأشجار وأقول مالي ولها ؟ أخلقنا باطلاً ونترك سدى ؟ ! ولا يأتيني جواب . . .

★ ★ ★

- إنه غبي وغليظ !

- من ؟

- أستاذ التاريخ . . لم يعجبني .

- كنت تبدين مسرورة حين يتناول في درسه مقارنة بين أديان العالم .

- كنتُ ! !

- فما أزعجك ؟

- لقد سخر من دين محمد .

- ومتى كنت تنصرين ديناً من الأديان ؟ ألم تكوني تحتقرينها ؟

- لا أستطيع اعتناقها خوف النفاق ، لكني لم أكن أحتقرها . . . والذي أزعجني أنه ذهب يتناول كلًا منها

على حد سواء ، فشرح دين النصرانية بالعدل ، كما قد شرح أنواع الشرك ، والبوذية ، ثم اليهودية ، ولما وصل إلى الإسلام ، ميزه بأنه انحدار من قمة تعليمات المسيح إلى مجموعة من الطقوس أدت إلى جمود الشعوب . ثم روى عن لسان صديق له حضر مؤتمراً في المملكة العربية السعودية فقال : كنا مستغرقين في البحوث والمفاوضات . . فإذا فئة من المسلمين يقومون إلى الغرفة المجاورة ، يسجدون عدة مرات ، ونحن ننتظر . وكأن سجودهم هذا أهم من المفاوضات . . لعلهم خافوا أن يحرقهم إلههُمْ في النار إن لم يسجدوا له في وقت معين . . . فضحك الصف طويلاً وأنا أمسك نفسي من الغضب . وبعد الدرس سألته :

ـ لماذا تنتقد محمداً وأتباعه دون غيرهم ؟ فقال : لأنه مدَّعٍ خدعَ شعبه ودفعهم إلى الحروب . قلت : وما يدريك لعله كان مخلصاً ، يقتنع بأن الله قد أنزل عليه الوحي كما أنزله على الذين من قبله . . . ؟ قال : وهل أنت مؤمنة بالله أولاً . حتى تجادلي فيما أنزل ؟ ولم أدر بماذا أجيبه فسكتُّ . .

☆ ☆ ☆

- أين تذهبين ؟
- إلى الشاطىء .
- والامتحان ؟
- نعم ؟
- لم يبق سوى بضعة أيام للامتحان ، وتذهبين إلى البحر ؟ !
- إن شئتِ أخذتُ معي كتاباً . . .
- هل ترافقك رفيقتُك التي لم تُعجبنا أخلاقها ؟
- أذهب وحدي .
- ألا ترين أن لو درستِ لكان خيراً لك ؟ ستكونين في النهاية مثل رفيقتك ، لا علم لها ولا أخلاق . . تصاحب الشباب ولا تعود إلا بعد منتصف الليل . وستضطر إلى الزواج في سن مبكر . أتريدين أن تكوني مثلها ؟ !
- لا يعجبني أحد من الشباب . إنهم كالأطفال ، لا شخصية لهم ولا عمق .
- فإن وجدتِ يوماً من يحوز إعجابك ، أتظنين أنه سينظر إليكِ وأنت لا تهتمين إلا بالسباحة ؟ ! إنك ضائعة وكأنك لست منا ! كدنا نيأس منك ومن مستقبلك . . . راجعي نفسك ياابنتي !



ـ رأيتكَ ذهبتَ إلى الكنيسة اليوم ياأبي .

ـ مهما كان الإنسان عاقلاً فإن عواطفه قد تغلبه في لحظات . . .

ـ ليس في ذلك عيب ياأبي ، فإنك تتألم لوفاة والدتك ، ولكن ما الفائدة من ذهابك إن لم تكن مؤمناً ؟ !

ـ لا أدري . . . ربما لحاجة في نفسي . . .

ـ أفلا تذهب إلى الكنيسة مرة أخرى ؟

ـ لا . . . فسيمحوها الزمن . . .

* * *



وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ .

« النور : ٢١ »



ـ ما كل هذه المجلات حول غرفتك ؟ من أين جئتِ بها ؟

ـ لقد جمعتها مما أراد الجيران التخلص منه ، وفيها ما نشر منذ عشر سنوات . تفضل ياأبتاه ، ادخل .

ـ فماذا تفعلين بها ؟

ـ لقد طلبوا منا في المدرسة موضوعاً عن شخصية ذات أهمية في هذا العصر ، وكنا في درس الاجتماعيات نقرأ الصحف ، وكنا نتحدث عن الأخبار ، ومنها أخبار الشرق الأوسط ، فاخترت شخصية رئيس مصر الجديد جمال عبد الناصر ، لأن الصحف كانت تصوره عدواً لنا ، وما كنت أرى في موقفه شيئاً من العداوة ، فقلت لنفسي : كيف لا أفهم القضية كما فهمها الآخرون ؟ لا بد أنهم يعلمون مالا أعلم . . .

ـ كنت أفهمتك لو سألت . . .

ـ كان علي أن أقرأ شيئاً من تاريخ مصر . وما الذي أدى إلى الثورة ، وكيف حدثت ، فجمعت هذه المجلات لأبحث فيها ، وكان البحث طويلاً معقداً إذ يدخل فيه دور الاستعمار وقضية فلسطين ، لكنني انسجمت معه جداً ، فلما كتبت الموضوع ، أخذت العلامة التامة . . .

ـ عجيب ! !

ـ وحتى الآن ، فإني لاأزال أهتم بهذه القضية وأقرأ عنها ، ولما يتغير رأيي . ففي الموضوع كثير من الغموض ، وخاصة من ناحية العرب ، وليس من السهل كشف مبرراتهم ، بل لا نعلم عنهم إلا كلمة « التخلف » . هل لك أن تفهمني لماذا يستحوذ علينا ظلم اليهود في الماضي ، ونهمل ما يجري اليوم من تشريد للعرب في فلسطين ؟

ـ مثلهم كمثل الهنود في أمريكا تقريباً .

ـ أولم يظلم هؤلاء ؟

ـ إنها سنة الكون . . . بقاء الأصلح كما حللها دارون . ألا تذكرين ؟

ـ لم يكن ذلك قول الناس حين حاول هتلر محو اليهود في ألمانية . . .

ـ الوضع يختلف . فاليهود قوم عانوا كثيراً منذ القدم ، ومع ذلك فإنهم حافظوا على ثقافتهم وبراعتهم ، فاشتركوا في بناء مجتمعنا وخدموا العلم . وفيهم العبقرية والنبوغ . . .

ـ فينكر الضمير أن يظلموا . نعم ! أفإن كان الشعب غير مثقف ، لم يعد يعتبر فرده إنساناً له حق ؟

ـ الأمور نسبية كما قلت لك مراراً ، ومن الواقع أنا

نرى بقاء بعض الأجناس خيراً من بقاء آخرين ، رغم كون الحوادث والوسائل قبيحة أحياناً . . هكذا يجري تاريخنا مع الأسف .

ـ لو أن المصادفة أوجدتك فرداً من تلك الشعوب الضعيفة ، ترى ! أكان هذا رأيك ؟

ـ طبعاً لا . ولا نهاية لهذا النقاش ، إلا أن تكبري وتعقلي . . . وإني مسرور لتقدمك في المدرسة .

ـ شكراً ياأبي .



لقد صدق من قال إن الدين ضيق ، لا يناسب العقل ولا الحياة ، لكنني كنت أتمنى غير ذلك ، فإن فكرة الإله الخالق لا تزال تشغلني في بعض الأحيان . . لم أتخلص من تلك الفكرة . . والعلماء ، بكل ما قدموا من بحوث لم يثبتوا عندي عدم الوجود ، وإن كنت لا أؤمن ، فإنني أخشى . . .

كان لبني إسرائيل قديماً من أنبأهم عن ذلك الإله ، ثم كفروا بالمسيح الذي زعم النبوة من بعدهم . ثم كذلك زعمها محمد ولم يعترف بنبوته النصارى . فما برهان هؤلاء وهؤلاء حتى صدقوا أو كذبوا ؟ ترى لو كان لي سبيل إلى معرفة تلك الرسالات ، أكنت أهدى منهم ؟ ! كنت على الأقل اخترت ديناً ، لا على الإيمان الأعمى ، وإنما على قياسات عقلية . . . نعم . . . فكنت إذاً أهدى منهم . . .

لقد سمعت منذ سنين عبر المذياع (لماذا أذكرها الآن ؟) محادثة مع شخص يهودي اعتنق الدين المسيحي ، فسألوه عن أمره . فقال : ذلك لأكون يهودياً أفضل ؛ لأني أعتقد بأن نبأ المسيح حق ، وهو نبأ أحدث .

فماذا لو تقدم إلى دين محمد ؟ أكان إذاً نصرانياً أفضل ؟ سيكون هذا بحثي الأخير . فلا دين رئيسياً بعد

الإسلام . . . سأقرأ عن حياة محمد وما أنبأ عن الله . وإن وجدته غير معقول ، وهذا الذي أتوقع ، تركت الأمر نهائياً . . .

ـ هل قرأت شيئاً عن محمد والإسلام ياأبي ؟

ـ أكيد . . . منذ زمان .

ـ حين دخلت مكتبة المدرسة ، بحثت عن كتب عن محمد لمؤلفين من المسلمين ، فلم أجد إلا لمستشرقين غربيين .

ـ طبعاً ، فنحن الذين نقوم بالدراسات الاجتماعية .

ـ إني أستغرب عدم وجود كتاب بقلم مسلم عن الإسلام ، وهذا ما كنت أفضله . . .

ـ من ناحية المعرفة . ستجدين علماءنا أكثر موضوعية ممن كان صاحب عقيدة أو تقليد . . .

ـ على كل حال ، يروي الكاتب فقط عن حياة محمد ، كيف ربي يتيماً فرعى الغنم ، ثم أصبح تاجراً يسافر إلى الشام ، ثم تزوج . . .

ـ لا شيء يميزه عن غيره من العرب .

ـ إلا أنه كان يتأمل كثيراً ، ويتفكر عن الله . . كان يفكر ليل نهار ، وأنا لاأطيق من هذا إلا الشيء اليسير ، من حين إلى آخر ، فإنه عمل شاق . . .

ـ عمل لن يؤدي إلى نتيجة .

ـ كان يخلو إلى الغار ليتأمل ويتساءل عن الله . . . وبينما هو في خلوته مرة إذ جاءه الملاك جبريل ، أو تخيل له ذلك ، لاأدري . . . أكان العرب يعرفون أسماء الملائكة وأنباء العهد القديم ؟

ـ يبدو كذلك . .

ـ فقال له جبريل ؛ اقرأ . وكان أمياً لا يقرأ ، فرد عليه ؛ ما أنا بقارىء . فأمسك به جبريل فغطه بشدة ، وقال له ثانية وثالثة ؛ اقرأ . . .

ـ لا شك أنه كان مريضاً . يقال أنه كان يعاني الصرع .

ـ هل كون إنسان مريضاً يحول دون الوحي إليه لو افترضنا ذلك ؟ فالإنسان الطبيعي قلما ينتبه للأمور غير العادية . . . وما يدرينا ماذا كانت حالة الأنبياء الآخرين خلال تلك اللحظات ؟

ـ ما أجمح خيالك ! ! وددت لو أنك تتبعين سبيل العلم ، وقد صبرت كثيراً ، لعلك تستيقظين . . . ويظهر أني كنت مخطئاً في أملي ، فأنت لاتزالين تعيشين في عالم آخر . . .

ـ إني آسفة ياأبي . كانت أمنيتي أن أكون مثلك ،

ولقد أحببت العلوم جداً . . . وإني أتألم لتخلفي عنك في التفكير ، فلا تزد علي . . . أرجوك . . .

ـ وأنا آسف . تعالي تمّمي قصتك .

ـ لقد وجدت في قصة محمد ما يشير إلى العلم ، فأحببت أن أرويها لك . . .

ـ تفضلي .

ـ ففي المرة الأخيرة غط جبريل محمداً فكاد ألا يطيقه . ثم أرسله قائلاً :

اقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ
خَلَقَ الإنْسَانَ مِنْ عَلَق
اقْرَأ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الّذِي عَلَّمَ بالْقَلَمِ
عَلَّمَ الإنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ .

ـ أليس هذا كلاماً رائعاً ياأبي ؟

ـ بلى . . . جميل .

☆ ☆ ☆

ـ إنني وأمكِ مشغولا الفكر عنكِ . . بالصراحة . . .

ـ مرة أخرى ؟ ماذا فعلت الآن ؟

ـ لا نتهمك وإنما نقلق عليك . فقد جاء خبر من المدرسة عن مناقشاتك في قضية فلسطين من موقف غريب ، فقد سألوا إذا كنا نعلم كيف تكونت هذه الصورة لديك . . .

ـ لقد تكونت هذه الصورة من بضع جمل موجودة بين مئات ، بل آلاف الصفحات . فإن لكل مسألة أكثر من رأي ، ولا أجد عندنا إلا رأي اليهود . فأحببت أن أبين لهم ما عسى أن يكون الرأي الآخر . . .

ـ لك أن تعتقدي ما تشائين . لكنك قد تزعجين بعض الناس بكلامك فيزعجونك . . .

ـ عندئذ سيثبت اعتقادي بأننا نظلم العرب كما ظلمنا هنود أمريكا وزنوجها . وكل من ليس من أصل أوربي ، حين نتصور أنه أقل منا ذكاءً وأقل منا إحساساً ، فلا نبالي ماذا يصيبه من الألم . . وإني لأعلم ما يفعل ظن السوء في النفس ، وكيف ييأس هذا الإنسان من التفاهم والتعاون ، وكيف يرد بأسلوب الخاطىء العاجز . فيجلب إلى نفسه اسم المخالف والعاصي والمجرم ! إني أفهم كل ذلك ، ولم أقرأه في كتب العلم ! ولم أسمعه في المدرسة ! !

ـ ماذا بكِ ؟ لماذا تنفعلين هكذا ؟

ـ لا أدري . . . لكني فقدت ثقتي بالضمير الهادي ، لأن الأمور نسبية . . . ولن يتفق الناس على مبدأ أبداً ، حتى على الإنسانية . . .

ـ إنا نخشى عليك من التطرف إلى الباطل ، وحسبنا تحذيراً ، تلك الصور المعلقة في غرفتك لزعماء العرب . وذلك . . . كبيرهم . . .

ـ الرئيس عبد الناصر ؟ إنه رمز لشيء عندي . . .

ـ إنه رمز الشيطان ! الشيطان بعينه ! !

ـ كلا . . . إنه الرأي الآخر . . . الموقف الذي لا يُسمح به ، فيجهله الناس . . .

★ ★ ★

ـ لقد قررت أيها البحر ! ! سوف أرتحل عن هذا البلد وأبحث عما قد فاتني من معاني الحياة . . كيف هؤلاء القوم يدعون إلى الإخلاص في العلم والعمل ، وهم قد فقدوه في النيات ، وبدلوه أنانية وكبرياء ، لا هدف لهم سوى جمع أسباب الراحة واللهو ، حتى لم يبق العلم المقدس إلا وسيلة إلى التقدم المادي والسيطرة على الآخرين .

ـ لأجتهد ولأهيء نفسي لنيل الشهادة التي تفتح أمامي أبواب الدنيا ، فأنطلق حرة ، لأستقر أينما شئت .

وإن كان لي أن أشهد على الناس بالحق ، فلأفعل ولا أبالي . . .

⋆ ⋆ ⋆

ـ أمي ! أبي ! لقد عزمت على دخول الجامعة .

ـ إنك الآن في عامك الأخير . . . لو كنتِ قررتِ ذلك من قبل . . .

ـ ألا تمحو نتيجة هذه السنة ما قبلها ؟

ـ إن كنت متفوقة . . . فلن نثبط همتكِ . . لكنك ستحتاجين إلى جهد كبير جداً .

ـ سأحاول . . .

⋆ ⋆ ⋆

ـ نعم ؟ من يتكلم ؟

ـ أنا طالب عربي اسمي محمد . ألستِ أنتِ التي طلبتِ من مركز الإعلام بعض المعلومات ومساعدة في اللغة ؟

ـ لقد اجتمعت بمدير المركز صدفة ، ولي رغبة في دراسة شؤون الشرق الأوسط . فسألته عما إذا كان يوجد في بلدنا معهد لتعليم العربية . فأجابني للأسف أنه لا يوجد ذلك في القطر كله ، والمركز بعيد عنا . لكنه قال : سأرسل إليكِ اسم شخص موجود في بلدك ، قد يساعدك في طلبك . . .

ـ لقد أرسل إلي أيضاً كتاباً بهذا الخصوص ، وإني أدرس وأعمل ، فلا يسمح وقتي بالتدريس ، لكنني مستعد لأعطيك ما شئت من المعلومات . . .

★ ★ ★

- أمي أتذكرين قصة هابيل ؟
- نعم .
- كنت أشفق على أخيه وأظنه مظلوماً .
- أذكر ذلك .
- وما كنت أعلم الحقيقة .
- أتعلمينها الآن ؟
- لم يتقبل الرب قربان قابيل لأنه لم يكن من المتقين . وقد كان في نفسه إثم سابق .
- هذا من الممكن . من أين لك هذا الحل ؟
- إنه رواية القرآن . لقد أعطاني محمد هذه الترجمة إلى اللغة الإنكليزية . ما كنت أتصور أن يكون في القرآن ما يشبه كتب اليهود والنصارى . لا شك أن الإله الذي تحدث عنه القرآن هو ذاته الذي حدث عنه الأنبياء السابقون ، وأن نبيهم محمداً قد آمن به وبرسالته إلى الناس . . القرآن هو كتاب الإسلام ، فهو من آداب العرب التي سندرسها في الجامعة . . .
- انتبهي . تعلمين أن أباك قد أصبح قلقاً جداً لوضعك وإصرارك على هذه الدراسات ، ولن يوافق عليها ، وقد هدد ـ إن لم تنتهي وتغيري برنامجك ، وتتبرئي من ذلك الشاب العربي ـ فانه سيمنعك من دخول الجامعة .

ـ لكني قد قُبلت فيها . . . !

ـ لقد قال لي : أقنعيها ، وإلا فلن أدفع لها قرشاً .

ـ هذا ما كنت أخشاه ، فآثرت العمل خلال عطلة هذا الصيف . . . ولكنهم أخبروني أن عليَّ سنتين من الدراسات العامة ولغة أخرى قبل الا بتداء بالعربية ، فقد قالوا : إنها أصعب اللغات ، فبشريه إن شاء ، سجلت في آداب اللغة الفرنسية مؤقتاً . .

☆ ☆ ☆

وَإِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى بْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ قَالَ سُبْحَانَكَ مَايَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَالَيْسَ لِي بِحَقٍّ . . .

« المائدة : ١١٩ »

الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ . . .

« الأنعام : ٢٠ »

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . . .

« الأعراف : ٥٢ »

الٓر . تِلْكَ آيَاتُ الكِتَابِ المُبِينِ . إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . . .

« يوسف ١ ـ ٢ »

ـ قرآنٌ عربيٌّ . . . كتاب حي ، قابل للدراسة . . هكذا أجد نفسي مرة أخرى أواجه مسائل الدين . ولا تزال الحواجز كثيفة عالية ، تحجبني عن فهمها . . وإن أعظم هذه الحواجز هو الإيمان . . .

☆ ☆ ☆

والديَّ العزيزين :

لا أعلم كيف أبدأ هذه الرسالة ، إلا بأن أعتذر . .
لا يمكنكما تصور حالتي منذ عدت إلى المدينة الجامعية بعد زيارتي الأخيرة لكما ، وإني لأعلم أنكما تتألمان كما أتألم ، للجدل المرير الذي جرى بيننا نتيجة إعلان نيتي استبدال الدراسات العربية بالفرنسية في السنة القادمة ، لقد ظننت أنكما توقعتما ذلك . وأيضاً للغضب والأسف الذي أثيره فيكما دائماً حتى طردتماني أخيراً من البيت . فإن كان ذلك ما تريدان فعلاً ، فسأبقى هنا . ولن أزوركما في العطلة ، وإنما أبحث عن عمل لأدفع أجرة الغرفة والرسوم الجامعية .

وإنه ليحق لكما أن تتساءلا : لماذا أتعنت هكذا ، فأسبب لكما ولنفسي هذا الشقاء ! ! وأقسم لكما أنني لا أعلم . . ويوماً بعد يوم تزداد رغبتي ، وكأن الأمر ليس بيدي . . لعل الله يريد أن يدفعني إلى الإسلام ، ولا مرد لأمر الله .

إني أعتذر ثانية . وأتمنى الإصلاح بيننا .

ابنتكما النادمة .

حاشية

لقد ذهبت إلى الطبيب النفساني التابع للجامعة فقالت لي الممرضة إن مواعيده قد ملئت لمدة ثلاثة أسابيع ثم سألتْ : أأسجل اسمك في الدور ؟ فقلت لها لا تسجلي ، إما أن تتغير الظروف التي لا أطيقها ، وإما أن تحل المشكلة عن طريق الانتحار ، فكانت ممتنة لهذا التسهيل مني ، لأنه مشغول جداً . . . أرجوكما أن تعيدا النظر وتزوراني في أقرب فرصة .

كم ندمت لما كتبته في تلك الرسالة ! هل من الممكن أني بسائق ضعفي قد التجأت إلى النفاق ؟ ما الذي جعلني أكتب هكذا . . وأشهد بقدرة الله كأني آمنت بها ؟ لا عذر لي في تلك الكتابة . . . ليتني لم أضعها في البريد . . .

* * *

هل أنا مقبلة على الجنون حقاً ؟ إنني لا أنام الليل وليس طبيعياً أن أنشغل بهذا التفكير كله إلى هذا الحد ! ! . .

لقد جاءتني بنت من المبشرات تقول لي : اشهدي أن عيسى بن مريم هو الله وهو المنقذ لنا من ذنوبنا . ولئن اتخذتِه منقذاً فهو سينقذك وتكونين من الفائزين . . . ولقد أعجبت بتلك البنت ، ولم أر أحداً يمثل الأخلاق السامية كما تمثلها هي . . . وقالت زميلاتي : اصرفيها ، فرفضت أن أصرفها ، لعلي أسمع منها سر إيمانها العميق . . . تركتها تزورني عدة مرات ، وقد مال قلبي إليها ، وستأتي في الغد لتسمع جوابي الأخير . . وإن اتبعتها فسيصير لي منهج في حياتي ، وسترضى أمي ، وحتى أبي الآن سيرضى . . . لكن عقلي يتردد . . . والذي يرويه القرآن هو أقرب إلى عقلي . . .

وكل منهما كلام . لا أعلم إن كان فيه شيء من الصواب . وقد دفعتني أخيراً إلى الاختيار ، ولا أعلم ماذا أجيبها وأنا في جهلي . لِمَ لم أسمع كلمة البنات وأصرفها قبل وصولي إلى هذه الحالة ؟ لا واحدة منهن تهتم ، وأنا أرقة ، أفكر ، ولا أصل إلى نتيجة . . . كم أنا تعبة . . . ليتني أنام . . . وماذا أقول للناس غداً وأنا مرتبكة ؟ ماذا أقول لهم ، وأنا أخشى أن أكون على خطإ . . . ماذا أقول لهم . . .

ـ قولي لهم : إني أعبد الله ! . . .

☆ ☆ ☆

ـ هذا ما رأيتِ في منامِكِ ؟

ـ نعم ياماري ، بل هذا ما سمعتُ ، ولم أر شيئاً ، كنت مرهقة متحيرة ونمت في آخر الليل ، ولا أذكر حلماً ولا رؤيا إلا صوتاً يأمرني أن أقول : إني أعبد الله ، وكأنه يعني : أعبد الله مهما كان . فإن كان الله هو المسيح بن مريم ، فإني أعبد الله . وإن كان غير ذلك ، فأنا أعبد الله ، ولا أسميه غير الله . وقد أصبحت مطمئنة لأول مرة أني إذا قلت ذلك ، فلن أكون على خطإ . . .

ـ سامحيني ، فقد أزعجتك . . .

ـ بل إني أشكركِ ياماري .

☆ ☆ ☆

إنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الّذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتّةِ أيّامٍ ثُمَّ اسْتَوى عَلَى العَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ. مَامِنْ شَفيعٍ إلا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ. أَفَلا تَذَكَّرُونَ ؟ . .

« يونس : ٣ »

إنَّ الذينَ يُجادِلُونَ في آياتِ اللهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتَاهُمْ، إنْ في صُدُورِهِمْ إلا كِبْرٌ مَاهُمْ بِبَالِغيهِ . .

« المؤمن : ٥٦ »

يَاأَيُّهَا الإنْسَانُ مَاغَرَّكَ بِرَبِّكَ الكَرِيمِ الّذي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، في أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ . . .

« الانفطار : ٦ ـ ٨ »

ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الحَقُّ، وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دونِهِ الْباطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرِ . . .

« لقمان : ٣٠ »

☆ ☆ ☆

ـ لمَ لا تأكل معنا يامحمد ؟

ـ إني صائم . . . يصوم المسلمون شهر رمضان ، فلا يتناولون شيئاً من طعام أو شراب بين الفجر والمغرب .

ـ لا يطيق ذلك أحد ! لماذا هذه المشقة ؟

ـ لا أجد فيه مشقة . أصوم في كل عام ، فالصوم ركن من أركان الإسلام .

ـ كان للنصارى نوع من الصيام ، أخف بكثير من صيامك هذا ، ماهي أركان الإسلام ؟

ـ هي خمسة : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله . . .

ـ إعلان العقيدة .

ـ وإقامة الصلاة . . .

ـ هل أنت تصلي ؟

ـ كنت أصلي . . . كان أبي يجبرني . . . فلما سافرت إلى أمريكا ، شغلتني الحياة ولم أعد أصلي إلا قليلاً . . . ويأتي بعد ذلك إيتاء الزكاة ، ثم صوم رمضان ، والحج لمن استطاع . فدين الإسلام ليس صعباً كما تظنين . . .

ـ إن القرآن يذكر أموراً كثيرة . . . أفتتركون بعضها وتحافظون على بعض كفعل النصارى ؟

ـ لا يزال فينا من لم يترك . . .

☆ ☆ ☆

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ . أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِيْنْ . أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ . . . !

« الأنعام : ١٥٥ ـ ١٥٧ »

ـ ماأغرب هذه الحياة ! إني أجد نفسي على طريق غير الذي قصدته . ولست الآن مستعدة للزواج . ولا هو في برنامجي . . ليس الآن . كان علي أن أتمم دراستي وأسافر قبل أن أفكر بالاستقرار . ولم يكن لأحد أن يقف في طريقي . . فلما جاء محمد بالسؤال لم أكن أقوى على الاعتذار . وغداً سيتم زواجي . وكأن كل ماخططت له لم يكن . وإني أقبل على عهد لا رجوع فيه . فقد استسلم والداي كمن يستسلم إلى خبر الموت . وقد أغلقت الباب بيدي . . . إلى الأبد .

☆ ☆ ☆

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ المُوقِنِينَ . فَلَمّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً ، قَالَ هَذَا رَبّي . فَلَمّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ . فَلَمّا رَأى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبّي . فَلَمّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمّا رَأى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبّي هَذَا أَكْبَر . فَلَمّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ والأَرْض حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ المُشْرِكِينَ . . .

« الأنعام : ٧٥ ـ ٧٩ »

ـ فماذا أخسر إن دعوت ؟ وما الذي يمنعني من الإيمان ؟ أهو عقلي . . . أم جهلي ؟ هل يجوز بناء الدعاء على الاحتمال فقط ؟ الرجاء أن يكون هناك إله يهمه أمري ؟ ماذا خسرت إن لم يسمعني أحد . . . ؟

. . . يارب ، إن كان لك وجود ، وفقنا في هذا الزواج ، وثبّت زوجي في دينه فيعلّمني . . .

آذار ١٩٦١

زوجي محمد :

لقد مضت أيام فقط منذ أن سافرتَ عنا . . فعسى أن تجدك هذه الرسالة في العنوان الذي تركتَ لي في أوربا .

إني أكتب لك لأخبرك بأن والدتي قد توفيت مساء أمس ، وأني مضطرة لتأجيل سفري إلى سورية فترة قصيرة من أجل أبي ، فإنه أخذ يلجأ إلى الخمر ، وأخشى أن يؤذي نفسه . . لقد علمنا أنها كانت مريضة لكننا لم نكن نتوقع لها النهاية بهذه السرعة .

لقد أخذوا جثمانها فوراً ، وبقينا وحدنا في البيت ، أنا وأبي ، وكأننا لا نصدق ما حدث ، ولا ندري ماذا نفعل . . فذهبنا نتمشى في الشارع ، والحي كله نائم ، ثم عدنا إلى البيت ، ودلف كل منا إلى غرفته ، وقد كففت أخيراً ، عن البكاء .

وكنت قد بدأت من يوم سفرك بقراءة ترجمة القرآن من أولها ، وقد عانيت صعوبة في فهم كثير منها ، لكنني وجدت فيها ما يسرني من الصور والمواعظ ، فعزمت على الاستمرار بقراءتها . . أشغل نفسي بها عن التفكير ، وأستجلب النوم الذي ما كنت أجده ، شرعت في القراءة ولم يكن قلبي معها ، فإذا بي أقف عند هذا الكلام :

وَبَشِّرِ الصَابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنّا للهِ وَإِنّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ .

فانشرح صدري وأحسست براحة . . ليت أبي يجد ما يريحه . سأحثه على العودة إلى المخبر في أقرب وقت ، وأعتقد أنه سيوافق على ذلك .

آسَفُ لهذا الخبر المزعج ، وسأكتب لك عند وصولك إلى دمشق .

زوجتك المشتاقة



« شَرَعَ لَكُمْ منَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالّذي أوْحَيْنَا إلَيْكَ . وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعيسَى أنْ أقيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفرَّقُوا فِيهِ . كَبُرَ عَلى الْمُشْرِكِينَ مَاتَدْعُوهُمْ إلَيْهِ . اللّهُ يَجْتَبي إلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » . . . « الشورى : ١٣ »

★ ★ ★

ـ أترى أيها البحر إلى هذا الكتاب ! ! . . إن فيه هو الآخر أسراراً كما في أعماقك أسرار . ولقد فهمت شيئاً من أسرارك ، ولكني لم أجد من يفسر لي ما وراء ذلك مما لم أستوعب ! . . أما هذا الكتاب ، فلا أريد أن أكتفي بما فهمته منه . . وعسى أن أكون قد ملكت المفتاح . . وهو وجودي بين المسلمين . فلا بد أن أجد من يشرح لي ويعلمني ، حتى أدخل في دين الإسلام راضية مطمئنة ، كما دخلت في مملكتك من قبل . . . عسى أن أعرف ربي وأصبح من المتقين . . .

لن أنسى فضلك أيها البحر ، وإذا لم أرك في هذا المكان مرة أخرى ، فلا بد أن نلتقي في بلد آخر ، فأنا لا أتصور الحياة إلا وأنت قريب مني . . .

★ ★ ★

بسم الله الرحمن الرحيم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ .

« يوسف : ١٠٥ »



ـ هاقد حضرت إلى الدار التي نشأ فيها زوجي ، وقد اطمأن أهله ورحبوا بي ، ولا تزال أفواج من النساء تأتي كل يوم لتنظر إلى « الأجنبية » فمنهن من لا تعرِف دمشق التي تبعد بضع كيلومترات ، ويتساءلن إذا كانت كنسائهن ، أم هي تركيبٌ آخر . . .

إن الأمور نسبية ، فالذي يُستغرب في بلد قد يكون أمراً طبيعياً في بلد آخر ، فإن تضايقت التزمتُ الصمت ، لأني أنا الغريبة بينهم ، وقلت : « هذه هي المعرفة التي سعيتِ إليها ، فلا تشتكي ولا تبكي » لكنني أحياناً لا أملك إلا أن أفعل ، وهذا زوجي يذهب إلى عمله ، فإذا عاد وقصصت عليه قصص النهار ، قد لا يصدقني . . . وهل يصدق أحد عجائب ما أشهد ، يوماً بعد يوم ؟

لقد حذرني من أشياء كثيرة في القرية . . . قلة الماء ، المشقة في عمل البيت ، أمراض شتى ، الجهل في أمور الدنيا . . . ولم يردني ذلك كله ، لأني تركت القيم المادية في أمريكا ، فقلت لنفسي : « الذين يعيشون هذه الشدة لا بد أن يكونوا شعباً زاهداً لا يعرفون العبث » لكنني وجدتهم على العكس من ذلك تماماً . . . مهتمين بالمركز والمال . . . باللباس والمظهر الخارجي . . حتى أكثر من

قومي الذين تركتهم ! ! ويصلي أحدهم لله ، ثم يسب هذا ، ويشتم هذا ، ويضرب هذا . . .

ـ ما بك ؟

ـ لا شيء .

ـ ألم أقل لك إن الحياة هنا ليست سهلة فرضيتِ ؟

ـ بلى . . . إنها كذلك .

* * *

ـ يامحمد ! ! !

ـ نعم ؟

ـ أريد أن أتعلم اللغة .

ـ ألم تتعلمي من النساء ؟

ـ لقد حفظت أكثر حديثهن ، لا يتكلمن إلا عن شؤون البيت ، ولا يقرأن ، فماذا أتعلم منهن ؟ ألا تعرف شيخاً يعلمني ؟

ـ الشيوخ لا يدرسون النساء ! أتريدين أن تفضحيني ! ؟

ـ لا أمزح معك . . . أرجوك . . . ألا يوجد في دمشق دورات للأجانب ؟

ـ لقد سألت ولا يوجد .

ـ ألا تعلمني أنت ؟

ـ لمَ لا ؟
ـ فلنبدأ اليوم ؟
ـ إني اليوم مشغول .
ـ متى إذن ؟
ـ غداً إن شاء الله . . .

★ ★ ★

. . . قُلْ لا يَسْتَوي الخَبِيثُ وَالطّيِّبُ
وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ . . .
يَا أَيُّها الّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ
قَوْمٍ . . وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ . . .
وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً . . .
لِمَ تَقُولُونَ مَالا تَفْعَلُونَ ؟ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ
أَنْ تَقُولُوا مَالا تَفْعَلُونَ . . .

ـ إن كتابهم مهجور ! ! كأنهم يقرؤون ليطربوا بأصواتهم ، والكلام ؟ ! أليس الكلام من عند الله فيأخذ به المؤمن ؟ أم هو زينة المناسبات فحسب ؟

يبدو أن الإنسان هو الإنسان ، يختلف حسب مفاهيمه ، والأديان كلها سبل لتناسب تلك المفاهيم . .

وليس الإسلام كما ظننته ، ولست قادرة الآن على فهمه إذ كنت مخطئة من الأصل ، فسلكت طريقاً غير الذي أجد عليه الناس . . . فلا أخون زوجي بدخولي فيه ، ولا أخون نفسي . . .

☆ ☆ ☆

هأنذا أحضنك لأول مرة يابني ! ! بعيداً عن والدك ، فقد أدخلوه في الجيش ، فأرسلني لأضع عند أبي العجوز ، الذي لا يزال يحزن لشأني رغم تأكيدي له أنني بخير . . . وسنعود قريباً أنا وأنت إلى دمشق . . .

لقد سميتك محمداً ، فإنه اسم أبيك وجدك ، وهو كذلك اسم نبيك إذ خرجت إلى الدنيا مسلماً مطمئناً . . .

أنت أمانة بين يديّ ، ولا أملك أن أكفل مستقبلك . . . ليتني كنت مؤمنة فأتوكل على الله . . . ليتني قادرة على أن أجعلك مؤمناً ، أن أحدثك وأنت نائم ، فتُسجَّل عندك كلمةً تبقى معك إلى أن تكبر ، كلمةً تثبتك . . . ولم أحفظ من دينك إلا ما كنت أسمع المؤذن يقول ، لأقوله في أذنك :

الله أكبر الله أكبر
الله أكبر الله أكبر
أشهد أن لاإله إلا الله
أشهد أن لاإله إلا الله
أشهد أن محمداً رسول الله
أشهد أن محمداً رسول الله
حي على الصلاة
حي على الصلاة
حي على الفلاح
حي على الفلاح
الله أكبر الله أكبر
لاإله إلا الله

هل سمعت ياولدي ؟ ! هذا ما أتمناه لك . . .

☆ ☆ ☆

ـ يبدو أن الله يحبك ياأم محمد .
ـ صحيح ؟ ولماذا ؟
ـ لقد عُيِّنت في البحرية ، فسنقضي عامين في اللاذقية .
ـ عند البحر ؟ !

ـ نعم . وأعلم أنكِ تعبتِ من سفركِ الطويل ، لكن يجب أن نكون هناك في الغد .

ـ لقد نسيت تعبي كله ! . . ماذا يفعل والدُكَ بالطفل ؟

ـ إنه يؤذن في أذنه اليمنى وهو سنة الرسول . . . كان هكذا يفعل بالمولود . لكنه يخشى أن يكون الوقت قد فاته ، فقد مضى شهران منذ ولادته . . .

ـ لقد فعلت له ذلك ، ولم أكن أعلم . . .

☆ ☆ ☆

ـ لماذا لا يأتي أحد إلى البحر ؟

ـ لا يعرفون السباحة هنا كما تعودتم في الغرب . بل لو رأونا ، لحسبونا من المجانين !

ـ حين نجلس وحدنا على الشاطىء ، أرضع ابني والماء يقطر من شعري والشمس تضرب على كتفيّ ، ولا أفكر بالغد ولا بالأمس ، أعلم أن الجنة هكذا تكون ، مثل هذه اللحظات . . .

☆ ☆ ☆

ـ بشرني ياأبا محمد . . .

ـ لقد جاءتنا أخت لمحمد !

☆ ☆ ☆

ـ لقد حان وقت عودتنا إلى دمشق .
ـ لن أنسى هذه الأيام الجميلة . . . ألم تعدني مراراً أنك ستعلمني ؟
ـ بلى .
ـ متى ؟
ـ عندما نستقر في دمشق .

☆ ☆ ☆

ـ بشرني !
ـ إنه ولد سليم ! كم قد أنعم الله علينا . . .

☆ ☆ ☆

ـ هل ناديتَني ؟
ـ نعم . أريد أن أحدثك بأمر خاص وآخذ رأيك . . .
ـ ماهو ؟
ـ ماذا تقولين لو أخبرتك أني سأؤدي فريضة الحج في هذا العام ؟
ـ وهل لي أن أقول شيئاً مادام الحج عليك فريضة ؟ لقد شهدتُكَ تصلي منذ رمضان .
ـ إني سأثبت بإذن الله . . . وسؤال آخر . . .

ـ نعم ؟

ـ هل ترافقينني ، أم أنتظر سنة أخرى ؟ !

ـ كيف أرافقك ولستُ أعلم شيئاً ؟ وكيف أعدكَ بعد سنة وقد لبثت أربعاً ولم أقتنع بعد ، ولم أتقدم قط ؟

ـ إذاً ، سأدعو لكِ . . .

ـ نعم . . . افعل ذلك .

☆ ☆ ☆

ـ لقد صدق الله وعده واستجاب دعائي في الغيب إذ دعوتُ : « ثبّت زوجي في دينه » ولم أكن من المؤمنين . . . فالحمد لله الذي جعل لي آية ، لأؤمن به وأعلم أنه عليم بذات الصدور ، وأنه على كل شيء قدير !

ـ ياأم محمد ، لقد جاءتنا فرصة يتمناها كل مسلم . فقد عرض عليّ عمل في المدينة المنورة ، فنكون بجوار الرسول ﷺ ويزيد راتبنا أضعافاً . . .

ـ فما منعك أن تقبل فوراً ؟

ـ أنتِ .

ـ أنا ؟ لا شيء يربطني هنا . . .

ـ إنه قضية إسلامك . فلا يسمح بالدخول هناك لغير المسلمين .

ـ لقد فهمت .

ـ أراكِ تميلين إلى الإسلام ، فماذا لو ذهبت معي إلى السفارة ووقعت على الشهادة ؟

ـ أرجو من الله أن أفعل ذلك يوماً ما .

ـ أعني قريباً ، فلا نضيع الفرصة . . .

ـ أأسلم لأجلك ؟ لأجل الفرصة ؟

ـ ولله طبعاً . ما المانع ؟ كله خير . . .

ـ إني آسفة .

ـ نعم ؟ ماذا تقولين ؟

ـ إنك تعلم أني لا أريد غضبك ، لكنني إن أجبرت على الاختيار ، فضلت غضبك على غضب الله . . .

ـ وهل سيغضب الله إن أسلمتِ ؟ !

ـ إنه أعلم مني ومنك بنيتي ، وأخشى الحساب . . .

★ ★ ★

ـ لقد رزقنا الله مرة أخرى . . . ابنة صغيرة !

ـ اللهم اجعلها من الصالحين . . .

★ ★ ★

ـ متى ستعلمني أبا محمد ؟

ـ متى تريدين ؟

ـ اليوم . . . الآن !

ـ إني اليوم مشغول . . .

ـ متى إذن ، غداً ؟ ! ؟ إن كنت غير راغب في تعليمي ، فقل الحقيقة ولا تتركني مُعلقة على أمل ! !

ـ لم يكن ذلك قصدي ، وإنما أعاني من قلة الفراغ .

ـ لا أرى عليكَ واجباً أهم من هذا ، فإن سألت عن الدين ، أتوني بالخرافات ، وإن ناقشتهم يئسوا مني وانصرفوا ، وسيكبر أولادك ويسألونني . . .

ـ إني أشعر أحياناً أن أسئلتك لمجرد المجادلة ، ولا تقبلين أي جواب . . .

ـ ذلك لأني لا أزال أثق أن الدين ليس هو العاجز ، وإنما الناس هم العاجزون ! فكيف أصل إلى العلم إلا بالقراءة . . . ؟

* * *

ـ ربِّ . إني أشكو إليك أمري ، فقد دعوتك أن توفقني في زواجي فأجبتني ، ثم دعوتُك أن تثبت زوجي ، فاستجبت لي ، وقد أناب . ثم دعوتك أن يعلمني . . ربما استعْجلتُ في هذا ، سامحني ! لكن الأيام تمضي ، وأنا أمضي ولا أزداد .

إنك لا ترد دعاءً صالحاً . . . ألم يكن دعائي صالحاً ؟ أيكون خير[illegible] أن يعلمني ، وإلا ، بقيت مؤمنة غير

مسلمة ، أقف في الخارج ، ولا أعلم من أين الباب ؟ . .
ولا إذا كنت قادرة على ولوجه . . . ماذا تريد مني ؟ أليس
هناك جواب ؟

اقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خلَقَ . . .
قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
لا يَعْلَمُونَ ؟ . . .
إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ . . .
بَلِ الإنْسَانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى
مَعَاذِيرَهُ . . .
لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلا وُسْعَهَا ، لَهَا
مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ . . .
اقْرَأ . . . اقْرَأ بِاسْمِ رَبِّكَ . . .
وَأنْ لَيْسَ للإنسَان إلا مَا سَعَى . . .

ـ نفسي ؟ أعلِّم نفسي ؟ ولكن من أين أبدأ ؟ إنه
مستحيل ! !
ـ أحضر لي ياأبا محمد كتاب الصف الأول
الابتدائي :

ـ با... با. بابا. ماما. دادا... لولو...
أين لولو؟ في دار بوران...
ـ إكـ...ـرأ...لا ، غلط... إقـ... ـرأ..
بِاسْمِ رَبِّـ... ـكَ الَّذي خَلَـ... ـقَ
خَلَقَ الإنْـ... ـسَانَ مِنْ... عَلَقٍ...
إقْرَأ وَرَبُّكَ الْـ... ـأَكْرَمُ...

انها أجمل من الإنكليزية ، أجمل بكثير !
ـ أحضر لي كتاب الصف الثاني...

ـ قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النَّاسِ . . .
مَلِكِ النَّاسِ . . . إلـهِ النَّاسِ . . .
قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ،
إلـهِ النَّاسِ . . . .
قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ،
إلـه الناس . . .
ـ أحضر لي كتاب الصف الثالث . . .
ـ كيف الدراسة ؟ رأيتكِ وقفتِ . . .

ـ لقد وجدت المفردات الجديدة في القاموس ، لكني لم أعد أفهم معنى الجملة ، فقد تعقد التركيب ، ولا أعلم أصول اللغة كمن يتكلم من صغره . . . أحتاج لمن يشرح لي . . .

☆ ☆ ☆

ـ لقد سمعت اليوم أن دورة للأجانب قد فتحت ، ويمكنك الالتحاق بها إن أردت ذلك في المستقبل .

ـ إني تعبت كثيراً من رعاية الأطفال ، وأود لو أفرغ نفسي قليلاً للدراسة . . . فإذا بلغت الصغيرة ثلاث سنوات ودخلت المدرسة ، سأسجل في الدورة إن شاء الله . . .

☆ ☆ ☆

ـ ماذا تقترحين أن نفعل ! ؟

ـ ليس لي إلا حل واحد ، حل نساء هذا البلد ، لعن الله كل قاتل وقاتلة ! ! إني أرفض هذا الحل ! ! ولا يستطيع أحد أن يفعل شيئاً . . .

ـ فاهدئي إذن ، وارضي بما كتب الله عليك . لست أول امرأة حملت من غير قصد !

ـ لكنك لا تفهم ! ! لا تفهم شيئاً ! لقد ذهبت فرصتي الأخيرة ، فلن أدخل الدورة الآن ، ولن أتعلم أبداً . . . هذا ما كتب عليّ ! !

☆ ☆ ☆

ـ سبحان من يغير الأحوال ! ماشاء الله كان !

ـ ذلك بأن الله هو الحق . . . سأسميه عبد الحق . أتعجب أني يوماً اشتهيت الدراسة وهذه الهدية تنتظرني . . .

☆ ☆ ☆

ـ لقد دخلت صديقتي دورة الأجانب . . .

ـ وأنتِ تحسدينها .

ـ لا أنكر ذلك . . . لقد دعتني لأزور صفها يوماً . .

ـ فاذهبي معها اليوم .

ـ إني أخشى إن رأيتهم يتعلمون العربية أن تحرك الرغبة عندي مرة أخرى ، ولا أعود أطيق ذلك . . .

ـ فلماذا ترتدين ثيابك ؟

ـ إني ذاهبة معها . . .

ـ كيف رأيت الدورة ؟

ـ لقد استغربت أني فهمت الحديث كله ، واستطعت أن أتابع القراءة وهم في نهاية العام . لقد شجعني الأستاذ أن أبقى في الصف . . . لكنه مستحيل . . .

ـ هل تريدين أن تبقي في الصف ؟

ـ الأولاد لا يُتركون ، وخاصة عبد الحق . . .

ـ لاأداوم بعد الظهر هذا العام . إن شئتِ أخذتُ الأولاد في السيارة أيام الدورة . . .

ـ أجاد أنت ؟ ! أتفعل ذلك لأبقى في الصف ؟ ! لا أكاد أصدق ! . . .

★ ★ ★

ـ يارب . . . لقد أتممت فضلك علي ، أفلا أكون من الشاكرين ؟ إني عزمت على حفظ الصلاة ، فلم تكتبها على المسلمين ، وإنما على الذين آمنوا ، فاهدني الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين . . .

ـ لو سمحت ياأستاذ . . . لدي بعض الأسئلة .

ـ تفضلي . . .

ـ إني أحتاج مساعدتك في إعراب هذه الكلمات . . .

ـ هذه آيات قرآنية ! هل تقرئين القرآن ؟

ـ أقرأ بعض الآيات بغاية الصعوبة ، ولولا وجود الترجمة عندي لما استطعت أبداً . . . لقد أكملت الدورة لكني أشعر بأني لا أعلم شيئاً ، وأني أحتاج إلى دروس أكثر . . .

ـ أتريدين أن أتمم لك القواعد لتساعدك على الفهم ؟

ـ أكون ممنونة طول حياتي . . .

★ ★ ★

ـ لقد حان موعدي . . . هذا أول يوم من شهر رمضان ، سأبدأ ، والله المستعان ، وسأقرأ القرآن كما أنزل ، ولو لبثت سنين . . . لأكتشفن أسراره ولو بعد حين . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ . . .

ـ ياأم محمد ، ألا تنامين الآن ؟

ـ بعد قليل . . .

ـ يا للعجب ! ماكل هذه الكتب ؟

ـ هذا قاموس عربي ـ إنكليزي ، وهذا قاموس عربي فقط ، وهذا كتاب للنحو والصرف ، وهذا تفسير للقرآن . . .

ـ أولا يكفيك المصحف وحده ؟

ـ ليتني أفهم بهذه السهولة . . .

☆ ☆ ☆

ـ متى نمت البارحة ؟

ـ في الساعة الواحدة تقريباً . . .

ـ والليلة التي قبلها ؟

ـ مثلها . . .

ـ لِمَ لا تقرئين في النهار ؟
ـ ليس لي في النهار فراغ ولا هدوء . . .

★ ★ ★

اللّه وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا ، يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلمَاتِ إلى النُور . . .

ـ لقد مضى شهران وأنت تسهرين . . . ألا تتعبين ؟
ـ جداً . . . حين أغمض عيني لأنام أرى أمامي حروفاً بيضاء .
ـ ألم تكوني قد جاوزت النصف ؟
ـ لا أزال في سورة البقرة . . . إني أقرأ بصعوبة ، أخطىء وأتردد ، وأكتفي بفهم المعاني ماستطعت . . . لكني رأيت في نومي أني أقرأ في مصحف كبير . . أقرأ مالم أحفظه . . . إنها الآيات التي قرأتها منذ أيام . . . أقرأها بدون خطإ وبدون تردد . . . في لهجة العرب ! . . . فأظل كذلك فترة وأنا فرحة ، إلى أن يأخذ قلبي الشك . هل من المعقول أن يكون هذا صوتي ؟ ! فإني أخطىء وأتردد ، فلماذا أتخيل أنها قراءتي ؟ ثم إن الشك يغلبني . أحقاً هذا صوتي الذي يقرأ ؟ ! فأرفع يدي شيئاً فشيئاً ،

وأنا بين الخوف والأمل ، وأضعها على حلقي ، فإذا هو صوتي الذي يقرأ . . . وأستيقظ مستبشرة . . . أهكذا يمحو الله أخطائي . حين يخيم القنوط واليأس على نفسي ؟ !

★ ★ ★

- إني مضطرة للسفر ياأبا محمد ، فقد مرض والدي ولم يعد يقوى على زيارتنا . . . وقد طلب حضوري . عسى أن أرضيه في آخر عمره . . .

- كم أشعر بالغربة في هذا البلد ، كأني لم أعرفه . . . أهو الذي قد تغير هذا التغيير ؟ أم أنا التي تغيرت ؟ !

- من يتجول في الأسواق يشتهي كل شيء ، ولا يخطر في باله شيء إلا وجده . . . لكن الحياة مجردةٌ من الجهد والسعي . . لقد أصبحوا شعباً باطل التفكير ، عبث الحديث ، يقاومون الملل بالتسلية المستمرة ، يطلبون المتعة أكثر فأكثر في جو الحرية الذي يلغي الشعور بالخطأ والإثم ، ويعوض عنهما باللذة والاطمئنان . نعم . . . لهم الحرية ، ولهم الراحة ، ولهم الجمال . . . إنها الجنة لمن يقبلها كذلك . . . فكيف يفهمون لماذا أصلي . . . من أين يتقون . . . ؟

إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ . . .

« يوسف : ٣٧ »

اللهم إني مسافرة غداً . . . فاكتبني مع المهاجرين .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ . . .

« الرعد : ١٥ »

لقد تركت القرآن طويلاً وبعدت عنه . فلأبدأ من جديد . . .

. . . طَهَ . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ، إِلا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى ، تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ العُلَى ، الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى . . .

« طه : ١ ـ ٤ »

أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ . أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ ؟ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ . . .

« النمل : ٦٢ »

إنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْ تَزُولا ، وَلَئِنْ زَالتَا إنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مَنْ بَعْدِهِ . إنَّهُ كَانَ حَلِيماً غفوراً . .

« فاطر : ٤١ »

نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ؛ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ؟ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الخَالِقُونَ ؟ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ عَلى أَنْ نُبَدِّل أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ في مَالا تَعْلَمُونَ . وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأولى . فَلولا تذَكَّرُونَ . . .

« الواقعة : ٥٧ ـ ٦٢ »

إذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَت لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّت وَأَلْقَتْ مَافِيهَا وَتَخَلَّتْ . وَأَذِنَت لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . يَاأَيُها الإِنْسَانُ . إنَّكَ كَادِحٌ إلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيه . . .

« الانشقاق : ١ ـ ٦ »

- يا الله ! إن هذا لهو الإعجاز . . . سر القرآن ! !
فمن غير الله يمكن أن يأتي بمثل هذا ؟ ؟ . . .
- إن بعض أصدقائنا ينظمون رحلة إلى اللاذقية . . .
- لم تعد شواطئها جميلة كما كانت ، فقد اكتشفها الناس . . . ولكن من أجل الأولاد . . .
- هاأنذا جالسة مع الآخرين أمام البحر . . . وطني القديم الذي كنت ألتجىء إلى شواطئه الصخرية في كل فصل وفي كل فراغ ، في فرحي وحزني ، هاربة من البشر ، كان يمسك بيدي في كل مرة ، ويجذبني إليه فيمسح دموعي ويعوض عنها بالنشوة . . . وكان يدرِّسني ساعات طويلة في مبادىء الطبيعة وقوانينها ، ويدرِّبني حتى اكتسبت براعة قاومت بها أعلى الأمواج وأشد التيارات . . . وكان يناديني أيام العاصفة ، عالماً بأنني لن أرفض ، وكان ذلك سرنا ورمز الميثاق . . .

أتذكر أيها البحر ، يوم سحرتني الأسماك وأنا أتأملها في دنياها الزرقاء ؟ فاندفعت برفقتها إلى الأسفل ، أكاد أنسى أني لست منها ، إلى أن ضاق صدري ، ولما انثنيت عائدة إلى السطح ، بَعُدَ عني ورأيت الموت أمامي ، ولست أدري كيف رحمتني آنذاك وفيما بعد ، فإني كثيراً ما كنت أخالف الشروط وأتجاوز الحدود .

كنتَ صديقاً وفياً فكيف أنساك ؟ وكنت مهد إيماني، وجهتني إلى السبيل فهاجرت عنك. وإن كان ذلك قصدُك، فابقَ حازماً أيها البحر، ولا تبتسم لي أبداً، لأنك أقوى مني... إنني راحلة ولن أعود إليك...

★ ★ ★

ـ ألا تريدين النزول إلى الماء ؟

ـ ليس الآن... اذهبوا... سأبقى هنا مع هذا الكتاب الصغير...

ـ تبقين وحدك ؟

ـ يكفيني هذا الحديث القدسي النهار كله. اذهب معهم أبا محمد...

ـ أي حديث ؟

ـ قال الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ماشاء.

ـ سأبقى أنا أيضاً...

ـ لماذا الدموع ؟ هل حدث شيء ؟

ـ إني انشغلت مع الضيوف وقد فاتتني صلاة المغرب.

ـ لا يؤاخذنا الله على النسيان . . .

ـ لم أنسَ وإنما خجلت منهم ، وهذا الذي يحزنني أنني لا أزال بعيدة ، ولن أكون جديرة بهذا الدين . . .

ـ اقضي صلاتك ولا تقنطي من رحمة الله . . .

بسم الله الرحمن الرحيم

وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين . إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . . . (سأحذف هذا من صلاتي ، فإني أكذب ! . . . اللهم اغفر لي) . . . الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم . . . اهدنا الصراط المستقيم (فلن أجده وحدي) . . .

. . . والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين ، لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فلهم أجر غير ممنون . فما يكذبك بعد بالدين . . . (وأنت أم محمد ، مايكذّبك بعد ياغافلة ! !) أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ ! أليس الله بأحكم الحاكمين ؟ ؟ ! !

★ ★ ★

ـ أبا محمد . . .

ـ نعم ؟

ـ أريد أن أسلم .

ـ متى ؟

ـ الآن .

ـ الدنيا ليل . . . أبدأ معاملتكِ في الغد . . .

ـ هل تؤجلني ؟

ـ أبدؤها في الغد . . . صباحاً . . . أعدك .

رَبِّ هَبْ لي حُكْماً وَأَلْحِقْني
بالصَّالِحينَ ، واجْعَلْ لي لِسَانَ صِدْقٍ في
الآخِرِينَ ، وَاجْعَلْني مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ،
وَاغْفِرْ لأبي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ .
وَلا تُخْزِني يَوْمَ يُبْعَثُونَ . . .

« الشعراء : ٨٣ ـ ٨٧ »

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ
وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنا . إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

« البقرة : ١٢٨ »



- مارأيك أن نسافر إلى العمرة ؟
- أفضل قبل ذلك أن أؤدي فريضة الحج . . .
- وكذلك فلنحج إن شاء الله ، في الموسم الآتي . . .
- قبلت إذن .

- كأني أطير فوق الصحراء ، لاأجد ظلاً . . . يشتد الحر وأشتد عطشاً . . . أحس بأني أحترق . . وأن شيئاً يخنقني . . . وإذا لم أستطع الهبوط قريباً ، فإني سأهلك حتماً . . . ماهذا أمامي ؟ شجر أخضر ! ماء ورطوبة ! ماأطيب رائحة البحر . . . ياللعجب ! ! إنه بلدي ! كنت أعيش فيه . . .
- إنها الجنة .
- أأقترب منها فأنظر ؟
- لذلك جئت بك . . .
- إنهم يسبحون كما كنت أسبح ، مسرورين ، مبتهجين .
- اهبطي فتكوني منهم .
- إن الحر يهلكني ، لكني عاهدت ربي . . .
- إنهم في برودة يسبحون . لا يمسهم تعب ولا يتحملون . . . اهبطي وكوني منهم .

ـ ماأجملها . . . ماأشد شوقي ! ماذا لو فعلت دون أن يراني أحد . . . وأكاد أهلك . . . لكني عاهدت ربي . . .

ـ ماذا عاهدت ، والجنة أمامك ؟ وليس عليك إلا أن تدخلي . . .

ـ إذاً سأهبط . . . لكني إذا كنت منهم فهل ينبغي أن أخلع هذا ؟ لباس التقوى ؟

ـ طبعاً ، فإنك منهم . . .

ـ إنك تكذب ! وليست الجنة ! إنك أنت الشيطان تغويني . وإني لن أهبط ولن ترميني . . . إني عاهدت ربي . . .

الله أكبر الله أكبر . الله أكبر الله أكبر .
أشهد أن لا إله إلا الله . أشهد أن لا إله إلا الله .
أشهد أن محمداً رسول الله . . .

ـ قومي أم محمد . فإنه الأذان الأول . هيا فلنصلْ إلى الحرم قبل الفجر . . .

خرجنا أنا وزوجي إلى نهار جديد . وذهبنا نطوف وندعو : اللهم قربنا إليك كما قربتنا إلى بيتك هذا ! !

ووقفنا في صلاة الفجر . وعند الضحى عدنا إلى الحرم الشريف ، وكأني عائدة بعد غياب طويل إلى مكان عرفته منذ صغري ، حافية القدمين ، مطمئنة القلب ، جلست أمام البيت أمتلىء سلاماً ، وتمنيت لو أبقى هكذا إلى الأبد . . .فلم تكن تلك الأيام إلا انعكاسات ضئيلة ، وما عشقت خلق الله إلا لأعرف الخالق . . .

. . . ياليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين .

« يس ، ٢٥ »

والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

« الأعراف ، ٤٣ »

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .